

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

إبريل ٢٠٠٦ - العدد ٢٤٨

يوم الأرض الفلسطيني

محمود درويش: رسالة إلى أمل دنقل

رسائل راشيل كوري: بلاغ عن الإبادة

محمد مندور وخطابه التقدمي

الأفغاني وتلاميذه «وثائق مجهولة»

رجاء النقاش يكتب عن فاروق شوشة

«رحلة سلام»: مسرحية لبنت في الإعدادية

أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

شهرية يصدرها حزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى

تأسست عام ١٩٨٤ / السنة الثالثة والعشرون

العدد ٢٤٨ أبريل ٢٠٠٦



الغلاف للفنان الفلسطينى الكبير : **إسماعيل شموط**

الرسوم الداخلية للفنان الفلسطينى الكبير الراحل : **ناجى العلى**

الاشتراكات لمدة عام

باسم الأهالى / مجلة [أدب ونقد] : داخل مصر ٥٠ جنيها

البلاد العربية ٥٠ دولارا / أوروبا وأمريكا ٧٥ دولارا

شركة الأمل للطباعة والنشر

الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر

يمكن إرسال الأعمال على العنوان البريدى أو البريد الالكترونى :

adabwanaqd@yahoo.com

موقع [أدب ونقد] على الانترنت : **adabwanaqd.4t.com**

ترجو المجلة من كتابها ألا يزيد عدد صفحات المادة المرسلة عن ثمانى صفحات أو ثلاثة آلاف كلمة

المراسلات : مجلة (أدب ونقد) ١ شارع كريم الدولة / ميدان طلعت حرب / الأهالى القاهرة / هاتف ٥٧٩١٦٢٨/٢٩ فاكس ٥٧٨٤٨٦٧

المحتويات


الحكم
الذاتي

أول الكتابة

انشغلت طويلا بكلام عن الحب لا أدرى لماذا ظل باقيا فى ذاكرتى كل هذه السنين، قالته الأدبية والفيلسوفة الفرنسية سيمون دى بوفوار فى واحدة من رواياتها، كنت قد قرأتها فى ستينيات القرن الماضي.. كانت بطلتها تتساءل: ماذا يا ترى يجعل أحدا يبقى على حب أحد بعد أن تنطفئ جذوة الحب الأولى؟

وأستعيد هذا القول كلما نظرت حولى لتجارب شابات وشبان يتزوجون بعد حب طويل ولا تكاد تنقضى سنوات قليلة إلا وتنفجر العلاقة وتتفكك ويحدث الطلاق الذى تتزايد معدلاته بسرعة، رغم أن الزواج قد أصبح هو نفسه عسيراً جدا إذ يقال إن هناك تسعة ملايين شاب وفتاة تجاوزوا سن الخامسة والثلاثين دون أن يتزوجوا بسبب عسر العيش بدءا بالبطالة وليس انتهاء بالعجز عن توفير سكن أو الارتفاع المتزايد فى الأسعار.

وربما لهذا السبب نفسه برزت ظاهرة الزواج العرفى بين الشباب والفتيات بدءا من سن المراهقة فى سعى لتلبية احتياجات شبابهم الفوار، ودون خروج فى الوقت نفسه على مقتضيات الضمير الدينى وحرص الفتاة على نحو خاص على الاحتفاظ بأى ورقة تثبت أنها متزوجة من رجلها اتقاء لغدر محتمل كثيرا ما يحدث ليدمر حياة البنت وليس الولد، وفى قصة «هند الحناوى» عبرة وأى عبرة.

لكن السؤال الذى بقى طويلا معى يخص علاقات الحياة الدائمة تلك التى تبدأ بالزواج وتعبر كل الحواجز وتتخطى الصعاب كافة لتبقى راسخة على مر الزمن تتحدى كل أشكال الإحباط والضجر.

كان رد سيمون دى بوفوار. على ما أذكر كما أنه ردى الآن أنه لابد من معنى ما .. فكرة كبيرة.. هدف لا يخص الذات الفردية وحدها ويصبح مع الزمن مشتركا بين طرفى العلاقة يغذيها ويمدها بماء الحياة فتعاود الأخضرار كلما أوشكت على الذبول.

فماذا يبقى للإنسان حين تخلو الحياة من المعني. ويجد المرء نفسه مربوطاً كثور فى ساقية الكدح دون هدف وكأنها صخرة سيزيف يحملها إلى قمة الجبل ثم يسقطان معا ليعاود هو حمل الصخرة وبدء رحلة الصعود مجددا إلى اللامعنى .. والإنسان هنا رجل وامرأة.

فى الدروب المظلمة للامعنى تذوى الروح، ويعجز الحب عن تجديد طاقاته ويتعثر فى الخيبات وتتفتح أبواب جهنم أمام صنوف الإدمان فى تطلع غير واع لخلق المعنى ولو فى الوهم مع دخان المخدرات أو حالة الهذيان المصاحبة لها والتى ظن بعض المبدعين أنها الحالة المثلى والملائمة للإبداع أو الانتصار على واقع راكد وبائس، وعلاقات إنسانية فقدت بهجتها ووهجها الأول ويسعى المحبطون لتجديدها ولو عبر تغيير الوعى والسباحة مع الأوهام.

والإنسان الفاعل فى واقعه المتطلع دائما لأن يكون له دور لا فحسب فى السيطرة على مصيره الشخصي. وإنما أيضا فى مسار الواقع الاجتماعي. السياسى دافعا به للأمام وللأفضل هو إنسان متألم بالضرورة لا أذكر أين قرأت أنه ما من شيء عظيم حقا فى الحياة يمكن إنجازه بدون ألم فالإنسان الفاعل ينزل إلى البحر يخوض غمار التجربة يجاهد من أجل اصطياد سمكة حتى ولو خرجت له بعد عناء هيكلا عظميا كما حدث لبطل هيمنجواى العجوز والبحر، نعم وجد السمكة هيكلا لكنه كان قد أنجز عمله العظيم وتألم كثيرا وفرح كثيرا. فهناك مكاسب فى هذا العالم يصعب ترجمتها فى أشكال مادية. وهذا يتوقف على مفهومنا للمكسب والخسارة. فقد نجح المجتمع الرأسمالى عبر السعار الاستهلاكى والروح النفعية العارية فى أن يرسخ مفهوما ضيقا للكسب والنجاح جعل المثل الشائع «معاك قرش تساوى قرش» كأنه حقيقة حين ينتصر المال على الإنسان، الذى يقوم السوق بإخضاعه وتسحقه الأشياء بسحرها وتجرى مقايضة مهنية بينه كقيمة عليا فى حد ذاته وبين ما يملكه من أشياء وكثيرا ما تنجح هذه الأشياء وياللأسف فى إطفاء جذوة الحب بإغراقه فى ألاعيب المقايضة أو اختزاله فى لحظة إشباع عابرة خالية من المعنى فالمسافة تكون قد نشأت بين طرفى العلاقة بسبب «المال» أو «النجاح» أو «المكاسب» لأن أفقا أخر العلاقة الإنسانية لم يظهر يحميها من الاختناق ومن ضيق الأفق والأنغماس الكلى فى المصالح الذاتية. ثم بدء التقاتل من أجل زيادة هذه المصالح أو التنازع عليها فيما بين المحبين مادامو قد تشبعوا هم أنفسهم حتى الثمالة بقيم المجتمع الرأسمالى دون أى نقد لها أو سعى

لابتداع قيم بديلة تتجاوزها قيم تحول الإنسان ذلك الكائن الذى كرمه الله إلى هدف فى حد ذاته قطرة واحدة فى بحر عميق ينشدها البحر كله ويرعاها.

نحتاج إلى منظومة أفكار لا أقول نعتنقها وإنما نحبها أولا ونحن نتعلم منها هذه الحقيقة البسيطة أى أن الإنسان هو أثمن رأس مال. ونحن نتطلع لرد شاف على سؤال الفيلسوف الألمانى كانط ما الإنسان؟ وهو نفسه السؤال الذى انشغل به كبار المفكرين والمبدعين على مر العصور، هو سؤال كارل ماركس مؤسس الشيوعية الذى دعانا للنضال خروجا من مملكة الضرورة إلى ملكة الحرية وهو سؤال فرويد مؤسس علم النفس التحليلى الذى غاص فى دواخل البشر وغير نظرتهم لأنفسهم بشكل جذرى أصبحنا بعد كشوفاته الفريدة أقدر من ذى قبل على فهم ذواتنا عبر استدعاء المكبوت واللاواعى والتعلم من ألمنا.

وجدت نفسى أكتب ذات مرة بعد قراءة فرويد «آه لكم تعلمت من ألمي» هو كان أيضا سؤال سقراط ذلك الفيلسوف العظيم الذى قبل الموت طائعا دفاعا عن فكرته وموقفه فشرب السم مختارا وأخذت أسطورته الواقعية تلون حياة القابضين على الجمر دفاعا عن مثلهم العليا فى كل مكان.

الإنسان هو إذن موقف ومعني. قيمة وغاية لو لم يؤرقة التوق للمعرفة والفعالية نضبت روحه وذوت ولو لم تقده لهفته إلى معرفة الحقيقة التى تحتاج جهدا ذاتيا حقيقيا وتحتاج أيضا «للإقامة عند الآخر» على حد تعبير الفيلسوف الفرنسى «بول ريكور» وبدون تلك الإقامة الضرورية «لن أصحح رؤيتى لنفسى ومعرفتى لذاتى» حينها سوف أحفر وأحفر وأحفر وصولا إلى المخبأ تحت غياهب لكبوت وأغسل نفسى حتى تتحرر من غبار السنين، وأكون عونا للأخرين وسنداً للفكرة التى أحببتها وحولتها إلى سيرة حياة سيرة تجرى فى دماء اليومى وفى كل تفصيلات الحياة العادية ليتكشف البعد الأسطورى المختفى تحتها ويظهر المعنى جليا ناصعا لا يطبق الفراغ على الروح وتصيب عدواه الدماغ.

لا توجد طرق سريعة إلى الأهداف العليا، طرق تنقذ الحب الذى يهرب أو يذوى بل إن الطرق المباشرة نفسها إلى هذه الأهداف لم تعد ممكنة لذا فإن كُل الخيارات المطروحة أمام الإنسان ليكون فعالا فى تغيير الواقع البائس وإن كانت تتساوى فى جاذبيتها فإن أسئلة النقد وحدها وعلى رأسها سؤال: لمصلحة من؟ هى التى سوف تبين الغث من السمين وهى التى ستقود خطى المجروحين بالمعرفة العميقة على طريق أقرب

الاختيارات إلى الصواب. فلا يسكنهم الهلع من الأسئلة، ولا يقبلون سلطانا على العقل من خارجه، ويعتبرون العقل أداة للوصول لا هدفا فى ذاته، ولا يرون أن بوادر الميلاد الواقعية لقوى أصولية ظلامية فيها ملامح فاشية يمكن أن يكون إيذاناً بتكرار تجربة الأزمة الأوروبية العميقة فى منتصف القرن الماضى التى أدت إلى ولاد النازية والفاشية والحرب العالمية الثانية وكانت هذه الأزمة قد دفعت عددا من ألمع المفكرين لكى يكفروا بعقلانية الأنوار بل وأجذوا ينزلقون بالتدريج إلى العدم والحزن العميق وهو عنوان رواية لسارتر.

لا.. لا يجوز أن يدفعنا الهوان الراهن إلى العدم ولا إلى الحزن العميق كما أن التاريخ لا يكرر نفسه إنما تتشابه بعض ردود الأفعال حين تتشابه العوامل المتصارعة فى المقدمات.

وإنه لعدم من نوع أخر ذلك الذى يرى أن الأنغماس الكلى فى الذات ولسان حالة يقول «أبعد عن الشر وغنى له، هو ملاذ أو حل فما من حل فردي، وما من جدوى للانسحاب من الميدان حتى لا تتلوث بقاذورات الواقع المتردي.. فسوف تكون الأفكار والقيم والمثل العليا التى نختار التشبث بها والدفاع عنها فى كل تفصيلات الحياة عونا لنا على إزاحة القذارة.. الإحن الصغيرة والضغائن الشخصية وصدأ الجهاز الأخلاقى لكثير من البشر وتحول السياسة إلى مناورات وألاعيب صغيرة وحسابات شخصية لبعض الأفراد حتى فى أوساط التقدميين.

لابد أن أحدكم سوف يسأل: أكل هذا من أجل إنقاذ الحب؟ أكل هذا حتى لا تتآكل علاقات المحبين وتبقى أشواقهم نضرة أبدا كشجرة دائمة الأخضرار؟ أقول نعم.

فهل يا ترى أكون قد وصلت بعد كل هذا العمر من العمل والأفكار إلى التبشير بحب من نوع جديد حيث «الحب دينى وإيمانى» كما يقول «بن عربي» وذلك حتى أدعو الذين خابت أمالهم لاستعادة الأمل والبدء من جديد.

لكننى كنت أفكر طيلة الوقت فى ما أهفو إليه هو السير على طريق إنجاز ثورة هادئة حين يخرج كل الذين انسحبوا إلى ذواتهم إلى العالم الواسع ليكون قوة تغيير فعالة فهل سيخرجون. بما نعم وربما لا. ومع الرد الأخير لن أكون أنا التى خسرت إنما الحب.

المحررة

ملف

يوم الأرض الفلسطيني



* بيت الجنوبي / محمود درويش
* أدب المقاومة الفلسطينية / صبحي شحروري
* أغنية الشعب، هوية الوطن / ريهام زين العابدين
* جنين / سليمان دغش
* الموجة عورة / مُعين شلبية
* كلاكما قربان / منال خميس

شعر

بيت الجنوبي

في ذكرى أمل دنقل

محمود درويش

واقفاً معه تحت نافذة،
أتأمل وشم الظلال علي
ضفة الأبدية، قلت له:
قد تغيرت يا صاحبي.. وانفطرت
فها هى دراجة الموت تدنو
ولكنها لا تحرك صرختك الخاطفة

●

قال لي: عشت قرب حياتي
كما هي،
لا شىء يثبت أنى حي
ولا شىء يثبت أنى ميت



ولم أتدخل بما تفعل الطير بي
وبما يحمل الليل من
مرض العاطفة

●

الغياب يرف كزوجى حمام على النيل...
ينبئنا باختلاف الخطى حول فعل المضارع..
كنا معاً، وعلى حدة ، نستحث غداً
غامضاً . لا نريد من الشىء إلا
شفافية الشىء: حدق تر الورد
أسود فى الضوء. واحلم تر الضوء
فى العتمة الوارفة...

●

الجنوبى يحفظ درب الصعاليك عن
ظهر قلب. ويشبههم فى سليقتهم
وارتجال المدي. لا «هناكَ» له،

لا «هنا»، لا عناوين للفوضوي
ولا مشجب للكلام، يقول: النظام
احتكام الصدى للصدي. وأنا صوت
نفسى المشاع : أنا هو أنت ونحن أنا.
وينام على درج الفجر: هذا هو
البيت، بيت من الشعر، بيت الجنوبي.
لكنه صارم فى نظام قصيدته. صانع
بارع ينقذ الوزن من صخب العاصفة

●

الغياب على حاله. قمر عابر فوق

خوفو يذهب سقف النخيل. وسائحه
تملأ الكاميرا بالغياب، وتسأل : ما
الساعة الآن؟ قال لها: الساعة
الآن عشر دقائق ما بعد سبعة

آلاف عام من الأبجدية. ثم تنهد:
مصر الشهية، مصر البهية مشغولة
بالخلود. وأما أنا.. فمريض بها. لا
أفكر إلا بصحتها وبكسرة خبز
غدى الناشفة

●

شاعر، شاعر من سلالة أهل
الخسارة، وابن وفى لريف المساكين
قرآنه عربي، ومزموره عربي، وقربانه
عربى وفى قلبه زمنان غريبان،
يبتعدان ويقتربان: غد لا يكف
عن الاعتذار: «نسيتك لا تنتظرني».
وأمس يجر مراكب فرعون نحو الشمال:
«انتظرتك، لكن تأخرت». قلت له:

أين كنت إذاً؟ قال لي: كنت
أبحث عن حاضرى فى جناحى سنونوة
خائفة...

●

الجنوبى يحمل تاريخه بيديه، كحفنة قمح،

ويمشى على نفسه واثقاً من يسوع
السنابل. إن الحياة بديهية.. فلماذا
نفسرها بالأساطير؟ إن الحياة حقيقية
والصفات هى الزائفة

●

قال لى فى الطريق إلى ليله:
كلما قلت: كلا. تجلى لى الله
حرية.. وبلغت الرضا الباطنى عن
النفس. قلت: وهل يصلح الشعر

ما أفسد الدهر فينا وجنكيزخان
وأحفاده العائدون إلى النهر؟
قال: على قدر حلمك تتسع الأرض.
والأرض أم المخيلة النازفة.

●

قال فى آخر الليل: خذنى إلى البيت،
بيت المجاز الأخير...
فإنى غريب هنا يا غريب،
ولا شىء يفرحنى قرب بيت الحبيب
ولا شىء يجرحنى فى «طريق الحبيب» البعيدة
قلت: وماذا عن الروح؟
قال: ستجلس قرب حياتي
فلا شىء يثبت أنى ميت
ولا شىء يثبت أنى حي
ستحيا، كما هي
حائرة آسفة...

دراسة

أدب المقاومة الفلسطينية بين السجن والحرية

صبحى شحرورى

مقدمة عامة

المقاومة الفلسطينية بين أدباء الأرض المحتلة وبعض الأدباء العرب

لابد من الإشارة ابتداء إلى أن هذه المقاومة لابد أن تتجلى فى نتاجات هؤلاء الأدباء وفى نصوصهم، فأداة الأديب فى المقاومة أدبه، وعلى هذا فنحن هنا إنما نبحث عن المقاومة فى النصوص.

هذا التوضيح الذى يبدو أمراً مفروغاً منه مهما جداً، فقد قلت مرة: «لو أن الأدب بمستوى انتماء وحماس بل ونضال وتضحيات العديد من الأدباء، لكان لدينا أدب مقاوم حقيقى»، إن المسألة مقلوبة هنا، فالأصل أن الكلام يتطاول ويمتد، والفعل محدود، ونحن متهمون بهذا دائماً وأمام أنفسنا. لكن الذى حدث ومنذ بدء احتلال عام ١٩٦٧م، أن كثيراً ممن هم كتاب، أو أصبحوا بعد ذلك كتاباً، حملوا عبء النضال ومارسوه ودخلوا السجون، وقدموا تضحيات جساما، وصمدوا صموداً عز نظيره، لكن إبداعاتهم قصرت كثيراً وكثيراً جداً عن حجم تضحياتهم، التى وصلت حد الاستشهاد، وبقينا أثناء ذلك ومن بعده نتساءل، إن كان لدينا أدب سجون فعلى وذو مستوي، وهو جزء ولاشك من الأدب المقاوم، بل هو الجزء الأكثر احتداماً وارتباطاً بالتجارب النضالية.

إن الظاهرة الأساسية فى الأدب والثقافة الفلسطينية عموماً، أن كل شيء يذوب ويتشتت وينفرط عقده ولا يدوم. وتواجه هذه الظاهرة وبحجمها تماماً ظاهرة أخرى، هى تفجر الطاقات على نحو دائم، وتفتح المواهب الواعدة، غير أن كثيراً من الشباب الواعدين إنتاجاً ووعياً، لا يصلون إلى غاياتهم، ولا تنضج مواهبهم، وتطحنهم آلة التشتيت الضخمة هذه، وتكثر الأسماء، ونضج لكثرة الأسماء حتى كأن لدينا أدباء أكثر مما فى روسيا، أو فى أمريكا. ولكن الأسماء تتبدد جيلاً وراء جيل، ولو أننا حاولنا إحصاء هذه الأسماء منذ جيل الأفق الجديد مثلاً لكان لدينا عدد كبير من الأسماء.

هناك السفر إلى أصقاع العالم كله، وهناك تبدد الموهبة والصمت ، وكأن كثيراً من هؤلاء الذين ظهرت أسماؤهم، لم يكونوا موهوبين فعلاً، وإنما الغليان الشعبى العارم، دفعهم إلى توهم ذلك، وساعدتهم الأجواء السائدة على نشر نتاجهم.

لقد سادت روح منذ الانتفاضة الأولى، تدعو إلى أن يفتح الباب للجميع كى يسجلوا تجاربهم، وبغض النظر تماماً عن المستوي، إذ لهم الحق فى الكتابة تماماً مثلما كان من مسئوليتهم أن يواجهوا ويناضلوا ويضحوا ويسجنوا .. إلى آخر قائمة الأفعال هذه.

وقد وجد كثير من هؤلاء ضالتهم فى الصحف والمجلات الكثيرة، التى كانت ومازالت هى الأخرى تظهر وتموت، والتى يعد إحصاؤها مهمة عسيرة، وهى موجودة الآن أى موجود غيرها أو ما يكافؤها حجماً ولم يطرح السؤال يوماً عن المستوى إلا عند نفر قليل جداً، كان من حظهم أن يظلوا تعساء وهم يحلمون بالكيف والمستوى وسط هذا الطوفان الجارف.

لم يكن أحد أى أحد يستطيع وقف هذه الطوفان، وقد عمل الإعلام على الاستمرار فى هذا الجيشان، وخضع لذلك على سبيل المثال اتحاد الكتاب الفلسطينيين فى الضفة والقطاع، فأصدر العديد من النصوص غير الناضجة، ليس وحده بل الجميع ساهم إلا أسماء معدودة ومحدودة.

ولم يختلف الحال كثيراً فى الداخل، عند إخواننا من كتاب الاحتلال الأول، وأستذكر تلك الأيام، التى كانت فيها أسماء الزعماء السياسيين، ورؤساء الجبهات والحركات، مسجلة فى اتحاد الكتاب، ومازلت أذكر تلك اللجنة التى عملت فيها مع الزميل محمد البطراوى والأخت حنان عشراوي، وعمل غيرنا على شطب هذه الأسماء، وخفض عدد الكتاب المنتسبين للاتحاد، ولكن الأمور كانت تعود إلى ما كانت عليه بل وتزيد، وأذكر أن عدد الأسماء زاد علي (٣٠٠) اسم وربما أكثر.

فى السنوات الأخيرة، خفت صوت اتحاد الكتاب، وقلت النشاطات ربما لصعوبة الحركة، ولم يعد ممكناً متابعة الأمور بمثل ما كنا نتابعها قبل ذلك، وأصبح تشخيص الوضع على النحو السابق أمراً عسيراً، وأوكلت الأمور على نحو أشد، وكانت موكولة قبل ذلك، إلى المركز، القدس أولاً ثم رام الله بعد ذلك.

جريان الأحداث على هذا النحو، وبمثل هذه القوة والسرعة، جعل الكفاءات الجادة تهرب إلى

الأدب الحقيقى كما تراه، كإبداعات أولا وقبل كل شىء، وبدأت تلتفت هى الأخرى لمستوياتها ونتاجاتها، وتعمق التفات هؤلاء إلى المدارس الغربية فى الأدب، التى ما تنفك تتغير وتتجدد كل يوم مستفيدة من التقدم التقنى العام.

بل وقد ظهرت دراسات محلية، حاولت أن تستفيد من هذه المدارس مشوهة مرتين، مرة بقراءة الترجمات المشوهة، ومرة أخرى بالتشويه الذى تمارسه هى نفسها فيما تستطيع الوقوف عليه واستيعابه من المشوه الذى تقرأ.

وكنت على سبيل المثال، أعلن دائماً أننى كاتب أو ناقد من الدرجة الثالثة، مادام الأدباء فى الغرب ينتجون ، وبعض الأدباء والأكاديميين يترجمون ويشوهون ونحن من وراء ذلك كله نقرأ.

نصل الآن إلى النتيجة المهمة من وراء ذلك كله، وهى أن أدب المقاومة وهو أدب ناشئة فى معظمه ظل بعيداً دون نقد، ودون تداول على المستويات الأعلى معرفة من مستوى منتجيه.

وكلمة الناشئة هنا لا تفيد معناها المعروف فقد يستمر الناشئ عشرين عاماً ناشئاً، وإذا قسوت فإنك تقسو على الناشئة الكهول. أقول الحق أننى أعرف ناشئة من يوم وعينا على ذواتنا، وأوضاعنا بعد صدمة وكارثة ١٩٦٧م، وأعرف كتاباً على أبواب السبعين يكتبون بالطريقة نفسها والمستوى نفسه، ويصمون آذانهم عن كل نقد.

لماذا يسمعك الناشئ، أو هذا الكهل الناشئ، أن تحدثت معه، أو كتبت نقداً لا يجامل عن نتاجه، مادامت الصحف تفرد له صفحاتها وتنشر صورة أيضاً.

ولو أن هذا التصدى الذى يخرج عن طبيعة الدراسة الأكاديمية قطعاً كان شهادة، لقلت: إنى لم أندم على شىء مثل ندمى على عشرات المتابعات والمداخلات التى كتبتها عن أدب الناشئة المخضرمين هؤلاء وبكل القسوة التى لا تجامل، ولأنها لم تؤد فى نظرى لأى شىء يخدم الأدب الذى أحببت، ويخدم قبل كل شىء وجه الحقيقة.

إن هذه المحاور تتناول موضوعات أو ثيمات، لم يجر فحصها وتحليلها إلا فى النادر، ووجدت أنها لا تصمد أمام النقد الجاد، ولذا ترك أدب المقاومة، إن صحت التسمية، لأشخاص لا يتقدمون بنتاجهم إلى الأمام وإلى الناشئة، وإلى بعض الأكاديميين، مع أن مساهمات الأكاديميين كانت دائماً محدودة وقاصرة.

وسيكون همى فى الصفحات التالية الموثقة، أن أقف على كثير من الأمثلة عن كل هذا الذى طرحت، وبالقدر الذى لا يصبح معه هذا البحث طويلاً ومهلكاً.

ويطمح هذا البحث إلى كشف حقيقة وواقع الأدب فى مواقع وأماكن بعينها، بعد أن نال هذا الأدب وفى العالم العربى بالذات أكثر مما يستحق، وظل لزمن طويل يعزل ما عداه، ويدارى عجزه بل وتلاشيه أحياناً.

ويطمح هذا البحث أيضاً إلى الكشف عن سيطرة بعض الأساليب حتى بعد زوال دواعيها، ربما من سمات الحياة الثقافية أنها تبقى بعد ضعف بل وزوال الواقع الذى أنتجها كما حدث تاريخياً فى القرن الرابع الهجرى.

وعلينا أن نسجل فوراً وراء ذلك، أن أدب المقاومة ينطوى على مفهوم محورى أو رؤية: وهى أن الأدب يدور مع الواقع على نحو مباشر، وعلى المتصدى لهذا الأدب أن يسقط الكثير مما قرأ، خاصة القول بإن الأدب ينتج الأدب فيما يعرف بالتناص، وأية نظريات أخرى حديثة.
ذلك أن إحدي السمات المهمة لهذا الأدب كما نرى هو حديثه الدائم عن المضمون، وكأن هذا المضمون لا يتغيا شكله، وكأن لا بنية للنص وإنما مضامين، مضامين وثابة كما كنا نقول، وكنت لفترة قصيرة متهما، القراءة وحدها ربما أنقدتنى فى آخر الأمر.

(ب) سمات أساسية فى أدب المقاومة:

لقد تم استخلاص هذه السمات من مراجعة العديد من مصادر هذا الأدب، وهو فى معظمه من الشعر، ربما لأن زمن الرجع فى الشعر قصير، ولأن كثيراً من الناشئة يغريهم أن يصبحوا شعراء، لما للشعر من مكانة، معروفة تاريخياً، فى أدب العرب.

١ - الطابع التعبوى لهذا الشعر:

وعندما يكون طابع الشعر تعبوياً، فإن الشعر لابد أن يكون متفائلاً يمثل صلابة المناضل وعدم انكساره أمام التعذيب ومرارة السجون، فلا يهن ولا يضعف، أى لا يسمح له أن يصور لحظات الضعف الإنسانى، وهذه مسألة محورية فى الأدب، أقصد توجه الأدب لتصوير لحظات ضعف الإنسان، مما يبرز إنسانية هذا الإنسان.
ومن الشواهد علي ذلك أن العنوان الرئيس فى أحد كتب الناقد د. سمير شحادة التميمى بعد المقدمة هو (الرسالة التعبوية)(١).
ويرى أن هذه الرسالة التعبوية تتحقق فى شعر كل من (المتوكل طه) و(عبد الناصر صالح) فى مطولتيهما (فضاء الأغنيات)، و(نشيد البحر) بشكل خاص.
وشعر كل من عثمان أبو غربية ويحيى حبش.(صخر أبو نزار)، وهما يعملان فى التعبئة رسمياً يقع فى هذا الإطار كما يرد ذكره.

٢ - طابع المناداة والتعداد:

وأقصد بذلك الشعر الذى يعدد الأسماء ويطوف حولها، أسماء المدن والسجون والشهداء، وكل ما يتعلق بالأدب المقاوم.
يقول المتوكل طه من ديوانه فضاء الأغنيات:

«وأقول هذا الرمل يكذب
لن أصدق غير أوجاع الفقير الصادق الثورى
فى ليل المخيم والرصيف
فى بدلة الكاكى

وأقلام أشاعت فى الزنازين الصمود
ولن أصدق غير جمهورية الأبطال
فى اصطبلات خيل الفارعة
أو مرداون الظاهرية
والحظائر فى عناتا
فى الخيام بكتسعوت
وفى مجدو
فى بركسات التجمع فى بيتونيا
فى ظلام قيود عتليت الرهيب»(٢)

ونلاحظ هنا وجود قائمة بتعداد السجون.

ويرد عليه الناقد نفسه بذكر منسوبات مختلفة لمدن الضفة، دون أن يكون من الضرورى بالطبع أن تكون هذه المنسوبات صحيحة فى الواقع:

«وتمتد رسالة المتوكل التعبوية إلى فلسطين كلها أرضها وبياراتها ونخيلها وسجونها يذكر مقاهى جنين، ونخيل غزة وأريحا، وجبل النار والأغوار، وبرتقال قلقيلية، والميرمية والزيتون فى رام الله والبيرة والقدس، وكروم العنب فى الخليل، ولوز حلحول، وليمون طولكوم، ومساكب عنبتا، وزيت بير زيت وسلفيت، والصليب فى المهد ومارسابا، وكنائس بيت جالا، والصلاة فى الأقصى»(٣).

وهناك ترابط واضح بين هاتين السمتين، ويعد المؤلف نفسه السجون فإذا هى أربعة عشر سجناً والمخيمات فإذا هى أربع وعشرون داخل فلسطين وحدها.

إن العد طريقة فى التكثير وإظهار اتساع الوطن.

ومعروف أن الشاعر المتوكل طه ذكر قائمة بأسماء الشهداء فى نهاية ديوانه (فضاء الأغنيات).

وفى إطار البحث وراء الأسباب، أفاد الشاعر عبد الناصر صالح أن الكثير من هذا الشعر كتب فى ظروف صعبة فى السجون، خاصة عندما تأتى الأخبار متأخرة عن استشهاد القادة أو الأصدقاء، ولاشك أن الأمثلة المذكورة جاءت فى النتاجات المبكرة لكثير من الشعراء.

غير أن هناك شعراً أنضج تظهر فيه أسماء بعض المدن بدون هذه القوائم الطويلة، يقول الشاعر (سليمان دغش)(٤) من المغار فى الجليل الشرقى ما يلى:

«يرحلون الآن
عنا
ولنا صحو قليل
كى نغني
للفدائي

الذى يحمل من خمسين عام
قلبه الدامى
ويافا
للأمام»

فيذكر يافا فى إطار الحديث عن البحر، ثم يذكر القدس فى إطار إشارته للسماء.

«يرحلون الآن عنا
ولنا صحو قليل
كى نغني
للذي
أعلا بلاداً
للسماء
ومضى للقدس
مثل الأنبياء».

ويقول القاص (عمر حمش)(٥) من قطاع غزة فى قصته (عن راشد وحزيران والمخيم) على لسان شخصية شيخ فى القصة (استعدوا يا عالم للرجوع - الذى من يافا إلى يافا، الذى من المجدل إلى المجدل، الذى من أسدود إلى أسدود).

وهناك شعراء نالوا حظاً أكبر من الشهرة، فالشاعر عز الدين(٦) مناصرة يذكر الكرمل والخليل والشام وبغداد والقدس فى قصيدته (مهنة حرة).

٣ - وترتبط بهذه السمة سمة أخرى، هى أن هذا الشعر يوظف التراث الدينى والتاريخى والوطنى الشعبى:

بل يمكن القول إن السمة الثانية يمكن أن تدخل بكليتها فى هذا الإطار، والأمثلة كثيرة جداً، وسيطول البحث إن حاولنا الوقوف عليها كلها أو معظمها.

ومن هذا ديوان كامل لصخر أبو نزار(٧)، حيث يذكر آية من القرآن الكريم فى مقدمة كل قصيدة ثم يورد قصيدة من وحى هذه الآية الكريمة.

وأحب أن أعلق على كون الديوان مطبوعاً ثلاث مرات، بأن الديوان يمكن أن يكون قد وزع على كوادر بعينها.

وقد أشرت فى دراسة لى لم تنشر، لى أن شعر البدايات عند المتوكل طه يقوم على بنى دينية، ومعنى هذا أن المسألة تتجاوز توظيف التراث، ليصبح الشعر، شعر المقاومة هذا فى الغالب غير قادر على الاعتماد على نفسه كبنى بالتحديد فيرتمى على بنى جاهزة. ولكن الحال يختلف قليلاً أو كثيراً حين يعمد الشاعر - فى تجارب أنضج - إلى اختيار واقعة تاريخية يعلق شعره عليها كما فعل المتوكل طه نفسه فى ديوانه(٨) عن البرامكة، ويمكن لدراسة أخرى أن تجلو سر

هذا التوظيف، فهناك إذن توظيف واتكاء.
واتكاء الشعر الرومانسى على الطبيعة معروف والشاعر عبد الناصر صالح فى ديوانه(٩) الأخير يخصص قصيدتين للنيل، ربما بسبب زياراته المتكررة لمصر.
كما إن الشاعر الفلسطينى المعروف هارون هاشم رشيد سمى أحد دواوينه(١٠) (طيور الجنة) وهو (قصائد للشهداء).

٤ - ذكر المضامين:

وكأنها تقوم هكذا وحدها دون أشكالها، مع العلم أن المضمون يتغيا شكله، وأن هناك بنية للنص لا يمكن فيها فصل أحدهما عن الآخر. فالسيد (زاهر الجوهر) يرى فى كتابه (شعر المعتقلات فى فلسطين)(١١) أن المضامين تقوم وحدها ويضع عنواناً كبيراً بذلك، بل ويفرد لذلك باباً، وكأن المسألة تشبه أغراض الشعر العمودى القديم من رثاء وفخر ووصف .. إلخ.
وها هى مجلة الجديد(١٢) تسأل بين أسئلة أخرى السؤال التالى لبعض الكتاب: «ما هو تأثير الانتفاضة على القصيدة شكلاً ومضموناً؟» ويرد فهد أبو خضرة قائلاً: «إذا بدأنا بالمضمون».
ومعنى ذلك أن هذه المجلة بما تمثل تقول بفصل المضمون والشكل عن بعضها حتى فى عام ١٩٩٠م.

٥ - الرمز القريب:

ونقصد بذلك استخدام الشعراء لرموز قريبة معروفة مثل تشبيه القائد بالربان أو الإشارة إليه على أنه كذلك، كما فى دواوين المتوكل طه الأولى(١٣).
وكذلك شبه الشاعر عز الدين مناصرة(١٤) عدوه بالأفعى التى لا ترحل إلا بقطع رأسها.
ويبتعد سليمان دغش(١٥) أو يرتفع بهذا الرمز قليلاً حين يرى فى (يافا) المهجورة (هاجر) إذ يقول:

هل أنت/ هاجر/ كى يهاجر فى إسماعيل/ من بلد / إلى بلد
ومن / زبد/ إلي/ زبد/ ويحملنى القطار/ إلى محطات الرحيل النورسى/
فهل نعود/ مع الصهيل/ وهل نعود/ مع الهديل/ وهل نعود/ على الغروب؟!!

ومن الرموز التى تستعمل بشكل عام فى إطار شعر المقاومة الفلسطينى، استعمال كلمة خارطة للدلالة على الوطن حتى إن أحد الشعراء(١٦) أدخل هذه الكلمة فى عنوان أحد دواوينه وكلمة ناقوس، والناقوس يقرع بالطبع منذراً بالخطر الداهم الذى يواجهه الوطن وسيهاجمه.
ورمز الناطور الذى يحرس الوطن، وهل مثل الناقوس ينبه الناس للخطر الداهم الذى يتهدد الوطن.
وهناك ذكر النوارس، تلك الطيور البحرية التى يرمز ذكرها إلى الرحيل.
والرصيف رمز قريب لما هو هامشي، وقد أفرد الشاعر الفلسطينى المعروف مريد

البرغوثى(١٧) ديوانا كاملاً لـ (قصائد الرصيف).
واستخدم فى هذا الديوان رموزاً قريبة من أدب المقاومة مثل (السياج) حيث يقول:

«بعيداً عن الغرفة الدافئة
قريباً من الانفجار الوشيك
وفى داخل اللحظة المفزعة
فتي
مال للأرض، مخترقاً بالرصاص
ومال السياج معه»(١٨)

٦ – كثيراً ما تظل القصائد هنا أسيرة التركيز على جذر واحد

ويتمثل ذلك بتكرار مطالع الأسطر، وتراجع هذه الأسطر فتجد أنها تعطى المعنى نفسه مع انزياحات ضئيلة، يقول عبد الناصر صالح:

«سنمضى إلى صوتهم فى أقاصى الكروم
سنمضى إلي حنطة الذكريات
سنمضى إلى أول الطلع فى دمهم
وسنمضى إلينا»(١٩)

ويمكن لهذه السمة أيضاً أن تتحقق من خلال تكرار(٢٠) واو العطف.
ومثل ذلك يتساءل الشاعر سليمان دغش(٢١) من الجليل فى أول كل مطلع من قصيدته (أيوب) مكرراً عبارة (هل أنت).

«هل أنت/ درتى الوحيدة/ والفريدة».
«هل أنت/ هاجر/ كى يهاجر فى إسماعيل».
«هل أنت/ أندلسي» لأصبح مرة أخرى/ غريباً/ أو حبيباً».
«هل أنت/ خارطتى/ لأبنى فيك أجمل دولة/ بمساحة القلب الصغير».

وتلاحظ هذه الظاهرة، داخل هذه المقاطع نفسها فى
«الوحيدة والفريدة»، و«غريباً أو حبيباً».
ويتكرر ذلك فى قصيدته «قرار البحر..(٢٢) وعاصفة الغضب..»
إذ يكرر كلمة «لك»
«لك/ أن تنامى فى دمى»
«لك/ أن تزفى الأنبياء».
«لك أن تحجى».
«لك أن تنامى فى دمى». مرة أخرى.

وإذا ما نزلنا إلى تجارب أحدث، وجدنا ذلك يتكرر فى كل سطر تقريباً.

إن الشاعر هنا لا يحب أن يغادر موقعه الذى ألفه، فيظل ينوع على جذر واحد إن كان متقدماً، أو يكرر ذلك فى كل سطر فى تجارب أولى.
وها هو الشاعر نزيه خير(٢٣) فى إصراره على أن لا شىء يغير المقدسات يكرر: -

«لا شىء يغير وجه القدس
ولا شىء يغير وجه الله»

وبعد ثلاثة أسطر يكرر السطرين السابقين للتأكيد، ثم يكررها للمرة الثالثة، كما أن عنوان القصيدة (لا شىء).
وكذلك يفعل مريد البرغوثي(٢٤) فى قصيدته (الشرفة) إذ يكرر كلمة (شرفة):

«شرفة واسعة/ شرفة واسعة/ شرفة لا مرأة/ شرفة للأصدقاء».

والحال هنا يختلف قليلا أو كثيراً، ذلك أن ديوان (قصائد للرصيف) يمتلئ بعناوين (أشياء) يريد الشاعر أن يجلوها مثل: **الشرفة، الرصيف، السياج، الساحة**، فالقصيدة هنا واضحة.
إن كل شىء مهدد أن يطير، أو يضيع، فالشاعر يبذل جهده هنا فى التأكيد والتشبث مع التنويع عند الشعراء الأعلى مستوي، ودون تنويع عند من هم دون ذلك.
ونجد هذه الظاهرة في ديوان (أمل دنقل)(٢٥) (العهد الآتى) إذ يحاول التأكيد على الاستثناءات:

«أما اليسار ففى العسر» إلا الذين يماشون/ إلا الذين يعيشون/ إلا الذين يشون/ وإلا الذين يوشون» أى يستثنى من اليسار أولئك المتعاملين مع السلطة.

ومع أن قصائد (محمد لافى)(٢٦) قصيرة إلا أنه يلجأ إلى التكرار، إذ يقول فى تساؤل وتعجب:

«وأزت الخطوات نحو بلاغةٍ خانت
لمن كتبوا رسائلهم؟
لمن عبروا سجوف الليل ركضاً فى مقاتلهم»؟
لمن هتفوا على حد السدى: (يا خالنا هانت)
ولم يرتج صوب الأفق باب؟!
ولمن هنا رفعوا الحياة على أكفهم لينتصر الخراب؟!

الهوامش:
(١) سمير شحادة التميمي، الرسالة السياسية فى شعر الانتفاضة، دراسة نقدية، القدس، دار العودة للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩١، ص٩.
(٢) ص ٢٨ من المصدر السابق.

(٣) ص ٣٠ من المصدر السابق.
(٤) سليمان دغش: على غيمتين/ شعر، نابلس - دار الفاروق، ط١، ١٩٩٧م، ص٥٧ -٥٩.
(٥) عمر حمش: عن راشد وحزيران والمخيم، الكاتب، عدد ٧٥، تموز ١٩٨٦م، ص٩٧.
(٦) عز الدين مناصرة: يا عنب الخليل/ مجموعة شعرية، إربد - دار قدسية للنشر والتوزيع، ١٩٩٢م.
(٧) صخر أبو نزار: السيوف - قصيدة مؤسسة العنقاء للتجديد والإبداع،ط٣، ١٩٩٦م.
(٨) متوكل طه: حليب أسود - شعر، اتحاد الكتاب الفلسطينيين، ط١، ١٩٩٩م.
(٩) عبد الناصر صالح، فاكهة الندم/ شعر، رام الله - بيت الشعر، ط١، ١٩٩٩م، الفقيدتان هما مرحباً أيها النيل ص ١٣ -١٦، عنوانها الماء ص٢٩- ٣٢.
(١٠) هارون هاشم رشيد: طيور الجنة، قصائد للشهداء، القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٩٨٢م.
(١١) زاهر الجوهر: شعر المعتقلات فى فلسطين ١٩٦٧ - ١٩٩٣م، رام الله - بيت الشعر، ط١، دون تاريخ صدور ، الباب الأول/ المضامين الشعرية، ص ٤٥.
(١٢) الجديد، العددان ١١،١٢/١٩٩٠م، مجلد ٣٩،ص٣٣.
(١٣) مصدر ١ ص ٥.
(١٤) انظر مصدر ٣ ص ٧ الديوان ص ٢٠.
(١٥) مصدر ١ ص ٧. ص ١٩ - ٢٠ فى الديوان.
(١٦) عبد الناصر صالح، سمى أحد دواوينه خارطة للفرح.
(١٧) مريد البرغوثى : قصائد للرصيف، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، عمان، ط١، ١٩٨٠م.
(١٨) المصدر السابق، ص ١٤ - ١٥.
(١٩) عبد الناصر صالح: فاكهة الندم: شعر، بيت الشعر، ط١، ١٩٩٩م، ص٦، قصيدة فاكهة الندم.
(٢٠) يلا حظ تكرار واو العطف فى القصيدة نفسها.
(٢١) مصدر سابق ١/٧، ص ١٧ - ٢١ فى الديوان.
(٢٢) نفس المصدر ص ٢٥ - ٣٦.
(٢٣) نزيه خير: ورثت عنك مقاوم النهوند، القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م، من قصيدة (لا شىء) ص ٢٤ - ٢٧.
(٢٤) مصدر ٢/١٠، القصيدة الأولى فى الديوان.
(٢٥) أمل دنقل: العهد الآتى، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٧٥م، قصيدته صلاة، ص٧-٩.
(٢٦) محمد لافي: مقفى بالرماة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، قصيدة (هم) ص ٦٩.

دراسة

أغنية الشعب، هوية الوطن

ريهام زين العابدين

الأغنية الشعبية هى قصيدة غنائية يتداولها الناس فى الوسط الشعبى ويتوارثونها فى مناسباتهم الاجتماعية، وقد تكون هذه الأغنية مجهولة النشأة(١) ، ظهرت بين أناس أميين فى الأزمان الماضية، ولبثت تجرى فى الاستعمال، لفترة من الزمن، أو معروفة النشأة كما أنها تعتمد لحناً شعبياً قديماً، وتمتاز باعتمادها اللهجة العامية، والوصول بمضمونها الشعبى إلى أعماق الناس، وانتشارها بينهم، ويدخل ضمن هذا النوع كل ألوان الشعر الشعبي، إضافة إلى الأغانى الفولكلورية (العتابا/ الميجنا/ الدلعونا/ ظريف الطول)(٢).

فهل تمكنت الأغنية الشعبية من الإسهام فى الحفاظ على الهوية الفلسطينية؟

بعد أن كادت تقوض مع ما تقوض من بنى فلسطينية (اقتصادية/ اجتماعية/ سياسية/ ثقافية/ ونقابية)، وبفعل تقوض الأخيرة، تحت مطرقة نكبة ٤٨، وتداعياتها الكارثية.

ظلت الهوية الوطنية الفلسطينية مهددة بالتبدد، لولا أن تضافرت جملة شروط، أسهمت بدور ملحوظ فى حماية هذه الهوية مع تفاوت فى الدرجة على أن ما يهمنا هنا هو الدور الذى حملته على عاتقها الأغنية الشعبية فى هذا الصدد.

بث الأمل

على مدى سبع سنوات من النكبة عاش المواطنون الفلسطينيون أوضاعا متردية للغاية، فيما فقدوا الأمل في احتمال تحرير وطنهم وعودتهم إليه وانتشرت في هذه الفترة (١٩٤٨ - ١٩٥٥) أغانٍ بعينها، حاولت الاستجابة لاحتياجات هذه الفترة. نرى أن أغاني الصغار مثل أغنية العسكر:

درب العسكر طوط طوط
واحنا رايحين على بيروت(٣)

وأغنية الطاقية:

طاق طاق طاقـــيــــة	طاقـــيـــتين بعليــــة
رن رن يـا جـــــــرس	حـول واركب ع الفـرس
طاق طاق طاقـــيــــة	فلسطين عـــربيـــة(٤)

وأغنية الجمال:

جـمـــال ابن جـمـــال	سـرقـولك جـمـــالك
ســيــفى تحت راسي	مــا يســمـع كــلامك(٥)

تحوى أغنيات الأطفال سالفة الذكر قيماً إيجابية، مثل الإقدام، اليقظة، وعروبة فلسطين، كما أن الأغاني التي طالما أنشدت في المسيرات والمظاهرات نبضت بالحماس، وأكدت على الحرية، كمطلب سام:

يا عــرب كــونوا أحــرار	لا ترضوا العيشة بالذل
يا بنذبح شــعب الكفــار	يـا مـن هـالديره بـنفـل
الله عـــــامل جنة ونار	يا مـــؤمن بأفكارك حل
يا بتـــرضى الجنة دار	يا بتيضلك تحت الذل(٦)

فيما تواسى أم الشهيد، وتحفز أم الأسير:

يا أم الشهيد زغرتي كل الشباب أولادك
ويا أم الأسير تمردي الموت ولا المذلة(٧)

ومدح المتطوع للجهاد:

ع المتطوع والله لا بدع وأقول على المطوع
طوعنى معك يا رايح متطوع طوعنى معك (٨)

خلفية تاريخية

استطاعت الأغانى والأشعار الشعبية أن تنفذ إلى قلوب الجماهير الفلسطينية، وتعبر عن آمالها وآلامها، فى حين لم تستطع الأحزاب السياسية التى كانت موجودة آنذاك فى فلسطين، أن تؤثر فى المجتمع الفلسطيني، إذ كانت عاجزة عن تحليله وعن إسقاط مفهوم العشائرية والعائلية من حياة مجتمعها، حتى إن كان للتناحر فيما بين الأحزاب مردود سيئ على ثورة ١٩٣٦، وفعاليتها، عبر عنه هذا المقطع:

يالله يا رجال الأحزاب تتناسوا الأحقاد الشخصية
أفراد الشعب تطالبكم والأقصى يحلفكم
تبقى وحدة كلمتكم جمعا لاخلاص النية(٩)

كما طعمت «الدلعونا» بمعان ثورية:

يما ويايما اعطينى رشاشي
طلبتنى الثورة والصبح ماشي
عفت الوظيفة وعفت المعاش
تحرير الوطن أغلى ما يكون(١٠)

ساندت الأغنية الشعبية ثورة (١٩٣٦-١٩٣٩) ثورة الشعب شبه الأعزل، المستنفر ضد قوات الانتداب البريطانى تؤازرها العصابات الصهيونية، ووضحت تلك الثورة مدى حماس الشعب العربى الفلسطينى للكفاح، واستعداده للنضال:

وسجل يا قرن العشرين	ع اللى جـــرى بفلسطين
ثلث سنين باللـيـــــالي	مـــــا نمنا بالـعــــلالى
واحنا بروس الجـــبـــال	للحــرب مـسـتـعـدين(١١)

على الرغم من الظروف القاسية التى أحاطت هذه الثورة العربية الكبرى ففى سنة ١٩٣٦ وإثر نشوبها أصدر المندوب السامى البريطانى قانوناً خاصاً (نظام الطوارئ) لسنة ١٩٣٧، منح سلطات الانتداب البريطانى صلاحية اتخاذ الإجراءات الضرورية لمواجهة الثورة - إلا أنه فى سنة ١٩٣٧ عندما بدت الثورة قادرة على الصمود والاستمرار.

واتضح أن الصلاحيات التى ينص عليها «نظام الطوارئ» لسنة ١٩٣٦ غير كافية للتصدى للثورة، منحت الحكومة البريطانية سلطات الانتداب البريطانى صلاحيات واسعة أخرى لسحق الثورة.(١٢).

مع ذلك لم يكف الشاعر الشعبى المناضل نوح إبراهيم، صوت الثورة وضميرها، عن حث الجماهير، على تنوع عقائدها وتوجهاتها، للنضال والإصرار على حماية الوطن من الاستعمار البريطانى والصهيونية المتسللة:

تحـيـــا الأمــة الـعــربيــة	من إســـلام ومـــســـيــحـــيـــة
هبـــوا يا أهـل الحـــمـــيـــة	واحموا الوطن واحموا الدين(١٣)

غير متناسٍ عروبته، التى يستمد منها الشجاعة، وعزة النفس، والتضحية بها فى سبيل الوطن:

أنا العــربى يا عـيـونى	عـــنـــد المـــوت ارمـــــــــــــــــــــــونـــي
يمحى اسم الصــهـيـوني	لأحمى بلادى فلسطين من كيد المستعمرين(١٤)

كما قدم إبراهيم أطواق الياسمين للمجاهدين، الذين أشرقوا فى سماء الثورة، امتناناً لما قدموه من فداء، وخاصة الشيخ عز الدين القسام:

عــز الدين يا خـســارتك	رحت فـــــــدا لأمـــــــتك
مين بينكر شـــهـــامـــتك	يا شـــهـــيـــد فلسطين(١٥)

وأيضاً، حيا صلابة بحارة يافا، فى عام ١٩٣٦، المضربين عن عملهم فى الميناء، قائلاً:

فى الإضراب ضحوا كتير — واجهوا الأمر العسير

وكانوا مثل للجميع — من كبير ومن صغير(١٦)

لكن نوح إبراهيم لم يكن وحيداً فى ساحة التحريض، إذ كان هناك شاعر يتخذ حب فلسطين ديناً، يدعى عبد المنعم، ويحلم بيوم الثأر من الاستعمار:

فلسطين الأبية لن تلينا — وتخضع أيها المستعمرون

ألا فليعلمن «جونبول» إنا — تخذنا حبها القديس دينا(١٧)

قصيدة أخرى:

أما إن التحرر من قيود — أغلتها أياد من حديد

وهلا أذنت ساعات ثأر — لنثأر منك ناكثة العهود(١٨)

نستشف من هذه الأغانى والأشعار، نجاحها فى تخطى «نظام الطوارئ» الذى يحجم التعبير عن الآراء، وأن تكون وقوداً يزيد الثورة تحدياً وصموداً. وهذه الفترة ليست منفصلة عن المرحلة التى تلتها نكبة ٤٨ إذ كانت للمرحلة الأولى مقدمة النكبة وما تلاها.

تشريد وإصرار على العودة

سلمت نكبة ٤٨ الفلسطينيين إلى أوضاع شديدة القسوة، اتسمت بالتهجير من المدن والقري، ومصادرة الأراضى الزراعية، فأصابت الفلسطينيين صدمة عنيفة، وغمرتهم مشاعر الحزن والمرارة، وجدت متنفساً لها فى الأغانى الشعبية، التى سجلت مآسى النكبة، حتى ارتقت إلى منزلة الوثائق التاريخية، منها هذه المقاطع:

طلعنا من أرض الخيرات — وحلت علينا اللعنات

ضيعنا أهالينا — وصرنا نسأل بالحارات

تشردنا وشفنا الأحزان — وعلينا جار الزمان

يا يهودى يا منجوس — غدرك فى الأرض مغروس

ها الأراضى اللى سرقتنا — لازم نرجعها عروس(١٩)

وأخرى تصور أيام الخيام، والإحساس بالمهانة، التى تعرض لها الشعب الفلسطيني، جراء هذه النكبة:

برب البيت يا أهلى اسمعولي | تقصلكم حديثى مع مثالي
وعيشة ذل فى الخيمة وسؤال | عن العاشة وإحسان الرجال(٢٠)

شعبك يا فلسطين ما يهمه خيانة | وتحرير الوطن علينا أمانة
ما بدنا إعاشة ولا إحسان | بدنا وطنا أحسن ما يكون(٢١)

كان يصعب على الفلسطينيين قبول هذا الواقع - مجتمع المخيمات - واستجداء وكالة الغوث . صور ذلك الشاعر عبد العزيز كتكت فى قصيدته:

قدر علينا الخلاق | جينا ودشرنا الأرزاق
شرينا علقم ما بنذاق | فى الخان بنشحد طحين
وصرنا نبشر بعظنا | تاجانا السمنة والسردين
وظيعنا الاسم العتيق | وصار اسمنا لاجئين(٢٢)

دخلت الجيوش العربية إلى فلسطين، وحققت انتصارات مهمة فى البداية، ولكنها توقفت ، بسبب تخاذل الأنظمة العربية، وتقاعس الحكام، ودعم الغرب الاستعمارى لإسرائيل، وتوقيع الهدنة ، فاتجه المغنى الشعبى باللوم إلى الجامعة العربية، الممثلة للأنظمة العربية:

لومى ع الجامعة ما تمدنا بسلاح | إحنا علينا الحرب وجيوشها ترتاح(٢٣)

لذلك حمل الشاعر الفلسطينى المشهور المخضرم، عبد الكريم الكريم (أبو سلمى) الشعب الفلسطينى مسئولية تقرير المصير:

سيروا على وضح النهار | فالحق من نور ونار
تأبى البطولة أن | ترى أبناءها خلف الستار
يا أيها الشعب النبيل | أمنت من شر العثار
قرر مصيرك أنت | لا من يبصمون على القرار(٢٤)

حيث أسفرت نتائج حرب ١٩٤٨، واتفاقيات الهدنة بين إسرائيل والدول العربية، التى تبعتها عن تسلط إسرائيل على ما يقارب من عشرين مليونا ونصف المليون دونم من مساحة فلسطين، بأكملها، وبالتالى الاستيلاء على مساحات شاسعة من الأراضى العربية التى يمتلكها أصلاً العرب الفلسطينيون الذين طردوا من مدنهم، وقراهم، أو تركوها بسبب الحرب أو على إثرها(٢٥).

فلسطين عبر الوحدة

كان اندلاع ثورة ٢٣ يوليو/ تموز ١٩٥٢ فى مصر إيذاناً ببدء عهد جديد، اتصف بالترنح إلى التحرر من أغلال الاستبداد والاستغلال، وبشر بجلاء الاستعمار، لذلك تجاوب الفلسطينيون، أشد التجاوب مع الثورة وكل الثورات التى تتابع اندلاعها فى البلدان العربية، التى كانت ترتح تحت وطأة الاستعمار. كما أن ثورة يوليو/ تموز حققت حلم الجماهير المتعطشة لظهور بطل قومى ذى كاريزما، تخلب الألباب ويحقق حلمها فى الخلاص من حياة الاستعباد، فى شخص الرئيس جمال عبد الناصر إذ كان عبد الناصر مناهضاً لحلف بغداد فهتفت الجماهير الشعبية الفلسطينية متعاطفة معه:

عـز العـروبة لجـمـال	والذل لنورى السـعـيـد(٢٦)

توج عبد الناصر هذه السياسة الوطنية القومية «بصفقة الأسلحة التشيكية» فى ٢٧ سبتمبر/ أيلول ١٩٥٥،التى نقلت المعركة مع الاستعمار من السلبى إلى الهجومى العنيف. وكانت هذه الصفقة انعطافة كبرى فى تاريخنا القومي، كما قام عبد الناصر بتشكيل الوحدات الفدائية فى غزة إبريل/ نيسان ١٩٥٥، أو كل قيادتها للبكباشى (المقدم) مصطفى حافظ، قائد المخابرات المصرية فى قطاع غزة آنذاك. وقد تمكنت هذه الوحدات من قتل زهاء ألف وأربعمائة إسرائيلى فى بضعة أسابيع فهزت الأمن الإسرائيلى من جذوره، ولم ترتح الحكومة الإسرائيلية، إلا بعد أن تمكنت من اغتيال حافظ فى ١١ يوليو/ تموز ١٩٥٦(٢٧) فجاءت صورة الرئيس جمال عبد الناصر مشرقة فى وجدان الشعب الفلسطيني، وتردد اسمه فى الأغانى الشعبية الفلسطينية، كزعيم شعبى كبير، ونصير لهذا الشعب، ومدافع عن حقوقه ، وأمله فى التحرير والعودة:

هبت النار والبـارود غني	تسلم لينا يابو خـالد يا حـامى ظعنا
هبت النار من عكا للطيـرة	تسلم لينا يابو خالد يا حامى هالديرة(٢٨)

كما صور الشعر الشعبى عبد الناصر بأنه خليفة صلاح الدين الذى سيكمل طريق العزة والكرامة:

بعد صلاح تشتتنا وضعنا	حتى أتى الأسمر على القمة وضعنا
وإذا نسينا وتجاهلنا وضعنا	مصيبة كبيرة ليوم الحساب (٢٩)

ازداد تألق نجم عبد الناصر بعد تأميمه لقناة السويس (١٩٥٦/٧/٢٦)، وانتصاره السياسي، إثر فشل العدوان الثلاثى على مصر وقطاع غزة خريف سنة ١٩٥٦. كان لهذه الأحداث كبير الأثر على الشعراء الشعبيين فى الأرض المحتلة، وعلى رأسهم الشاعر الشعبى عبد العزيز كتكت إذ نجد فى مروياته أبياتاً تسجل شيئاً من أحداث العدوان:

سنة الست وخمسين أى سووا تدابير	على بورسعيد تاينولوا القناة
ولاقاهم جمال فى دق النفير	قاله يا إيدن تقهقر لورا
أنا عندى سلاح الروس وعن الحرب لومي	ارجع يا معكوس وعاود ع المياه(٣٠)

ترددت أصداء الأحداث، أيضاً، فى المواويل الشعبية، التى عقدت بينها وبين آمال الشعب الفلسطيني، فى التصدى للصهيونية، وتحرير الوطن، والعودة:

المؤامرات أبو خالد أمامها	ما هاب الغرب شعوبها وأممها
قناته هب وبجيشه أممها	وعلى كل الغرب سكر الباب(٣١)

لم يدع الشعراء الشعبيون الفلسطينيون فرصة هذه الأحداث تمضى دون إلهاب حماسة الجماهير، وتوجيه التحية إلى مصر، التى أنزلوها منزلة الأم، ومدح الزعيم، الذى طال انتظاره:

لولا جمال ولولا مصرنا	عرب أحرار بالدنيا يا مصرنا
وأسوأ مصير بتقرر مصيرنا	لولا عملاقنا الأسمر وثب(٣٢)

تأثر عرب ٤٨، وقتها، وتأثرت السلطات الإسرائيلية معهم، بالحوادث التى كانت تجرى فى المنطقة، فاتحاد مصر وسوريا (١٩٥٨/٢/٢٢) ألهب حماسة عرب ٤٨، وبعث فيهم شعور الاستخفاف بالسلطة الإسرائيلية.

حيث إن الأقلية العربية، التى بقيت فى إسرائيل، كانت صورة مصغرة للشعب

العربى الفلسطيني، وينطبق عليها الكثير من الأوصاف التى كانت تميز العرب فى فلسطين(٣٣).

إسرائيلى روح لجروحك داوى لها	طبول العرب قد زادت دوى لها
بنى صهيون فلتسقط دولها	وتعيش الوحدة ما بين العرب(٣٤)

من أجل هذه الوحدة المجيدة جاءت الأشعار تفتخر بالعروبة وتعيد للأذهان أمجادها السابقة:

رجال العرب حطوا الصفن بعود	وضواسر طعنوا الأعداء بعود
كريم الرب ع الأوطان بنعود	وعلمنا فوق شمخات الهضاب(٣٥)

صفى كاسى بعد حزنه وراق	ومثل السرو عما يفرع وراق
مجدنا يالعرب عالى وراقي	بقدرة ربنا وجيش العرب(٣٦)

وصلت تلك الحماسة قمتها، خلال شهر يوليو/ تموز من تلك السنة بعد الثورة فى العراق، التى صادف قيامها الاجتماعات والمداولات التى كانت تجرى لإقامة «الجبهة الشعبية» مما أسهم فى دعمها، وهذه «الجبهة الشعبية» (العربية) – كما يدل إسمها – لم تكن إلا تجمعاً من الغرب، قوميين وشيوعيين ، هدفه، أساساً، العمل لمعالجة المشكلات الداخلية التى تواجه عرب ٤٨. فقد تعهدت الجبهة ، بموجب الدستور الذى أعدته لنفسها بالعمل لإلغاء الحكم العسكرى الذى رزح عرب ٤٨ تحته، حتى خريف ١٩٦٦ ووقف مصادرة الأراضى العربية، وإرجاع الأراضى المصادرة إلى أصحابها، وإلغاء التمييز العنصرى ضد العرب، واستعمال اللغة العربية فى جميع الدوائر الرسمية، والعمل، أيضا بالإضافة إلى هذه الأهداف لعودة اللاجئين العرب إلى ديارهم(٣٧).

اعتبرت السلطة الإسرائيلية كل تلك التطورات عوامل مشددة تصلح ذريعة لرفع منسوب القمع للعرب هناك، خصوصاً بعد أن اكتشفت إسرائيل، وقتها عدة شبكات أقامها شباب عرب، كانت تعمل بحماسة بدوافع قومية لمصلحة المخابرات العربية،

كذلك لوحظ فى أثناء تلك الفترة هروب الكثيرين من الشباب العربى إلى الدول العربية المجاورة، ورجوع العديد منهم إلي إسرائيل، للقيام بأعمال معادية للحكم الإسرائيلي.

من جهة أخرى حفزت تلك الظروف والضغوط الداخلية والخارجية الحكومة الإسرائيلية على إعادة النظر فى سياستها تجاه العرب، وإلى التخفيف منها(٣٨).

تشبث الفلسطينيون سواء فى الداخل أو الخارج، بالوحدة الشاملة بين العرب واعتبروها طريق التحرير لكل الأقطار العربية، وعلى رأسها فلسطين، فالوحدة كانت الفضاء الذى يتسع للآمال العريضة:

الله مقدر يا عرب وبالوحدة النجاح — واتوحدوا يا عرب فى سلاح الكفاح

عدونا ما يهمه تكديس السلاح — وما يهمه غير الوحدة والإيد القوية(٣٩)

نكست أعلامهم إلا علمنا — وقال الشعب يا فرحة علمنا

ويوم الكرامة رفعنا علمنا — وعلى إسرائيل طاب الموت طاب(٤٠)

إلى أن حدث الانفصال بين سوريا ومصر (٢٨/٩/١٩٦١)، وحول الآمال العريضة إلى إحباطات مريرة.

تشقق النظام العربي

انحسر توهج عبد الناصر، نسبياً، ومعه تراجع شعار «الوحدة طريق تحرير فلسطين». كما أن عبد الناصر دخل فى عداوات مع بعض القوى السياسية (البعثيين والشيوعيين) مما أثر سلباً، على شعبيته فى الأوساط الفلسطينية(٤١).

إلا أن هذه الخلافات العربية – العربية، وبزوغ التشققات فى النظام العربي، أدت إلى خروج الكيان الفلسطينى إلى الوجود، حيث ارتفع شعار «لا عودة لفلسطين إلا بوضعها فى يد الطليعة الثورية»، فشعب فلسطين تقع على عاتقه المسئولية الأولى فى المعركة بقدر ما تتحمل الأمة العربية مسئولية مشاركته، فـ «أبناء فلسطين أولاً»، أما العرب فـ «مشاركة» وفق ما يحدده أبناء فلسطين. ومن هنا يجب الفصل بين الدولة القومية التى تعتبر قضية فلسطين جزءاً من مسئوليتها التاريخية، وبين دور الفلسطينيين الطلائعى،ويعنى ذلك رفض أن ترتبط قضية فلسطين بقضية الوحدة الشاملة، على أساس أن الوحدة قد تأخذ وقتاً طويلاً حتى تتم من دون أن ينفى ذلك أهمية الوحدة بالنسبة لقضية فلسطين(٤٢).

تأسس الفرع القطرى الفلسطينى لحركة القوميين العرب، أواخر عام ١٩٦٤، الذى تأخر ظهوره بسبب انحياز الحركة التام إلى سياسة عبدالناصر، ومواقفه من مسألة الكيان الفلسطيني. أصبح هناك فرع فلسطيني، وقيادة فلسطينية مهمتها العمل الفلسطيني، والتهيئة للكفاح المسلح فى الساحة الفلسطينية، وإعداد مقاتلين، وتدريبهم.

بورقيبة يا ديوث بعت الوطن بالفلوس

نجح الفرع الفلسطينى للقوميين العرب، تبعاً لذلك فى هذا العام، بتسريب أول مجموعة فدائية إلى إسرائيل(٤٣). ربما كانت هذه الأغنية خير معبر عن هذه المرحلة التاريخية، رددتها الجماهير الفلسطينية بحناجر ملتهبة.

أنا يا أخى آمنت

بالشعب المضيع والمكبل

وحملت رشاشي

لتحمل بعدنا الأجيال منجل.

المراجع

(١) نمر سرحان ، موسوعة الفولكلور الفلسطيني، ط٢، عمان ، ١٩٨٩، صـ٥٢.

(٢) يوسف حداد، المجتمع والتراث فى فلسطين قرية البصة، ط١ منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٨٥، صـ٢٣٥.

(٣) عوض سعود عوض، دراسات فى الفولكلور الفلسطينى ؛ ط١، دمشق منظمة التحرير الفلسطينية، دائرة الإعلام والثقافة، ١٩٨٣، صـ٦٠.

(٤) المصدر نفسه، صـ ٦٠.

(٦) نمر سرحان ، موسوعة.. مصدر سبق ذكره، صـ ٧٦.

(٧) المصدر نفسه، صـ٧٧.

(٨) المصدر نفسه، صـ٧٩.

(٩) فؤاد إبراهيم عباس، الموروث الشعبى الفلسطينى فى ثورة (١٩٣٦ - ١٩٣٩)، ط القاهرة ١٩٨٩، صـ٥٠.

(١٠) عوض ، مصدر سبق ذكره، صـ٣٢.

(١١) نمر سرحان، خمسون سنة من المقاومة (١٩١٧ - ١٩٦٧) فى الفولكلور الفلسطينى شئون فلسطينية، بيروت ، العدد ١٨ شباط (فبراير) ١٩٧٣، صـ١٢٥ - ١٤٩.

(١٢) صبرى جريس، العرب فى إسرائيل، ط٢ بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٧٣، صـ٢٦.

(١٣) فؤاد إبراهيم عباس، الفولكلور وأثره فى المحافظة على الشخصية القومية للشعب الفلسطيني، التراث الشعبى (بغداد) العدد ٢، ١٩٧٧، صـ١٨.
(١٤) فؤاد إبراهيم عباس ، الموروث مصدر سبق ذكره صـ٤٢.
(١٥) الموسوعة الفلسطينية، طـ١ القسم الثانى مجلد ٤٤ بيروت ١٩٩٠ (انظر: د. حسن أبو عليوى الشعر الشعبى الفلسطينى ، صـ٧٢).
(١٦) فؤاد إبراهيم عباس، الموروث.. مصدر سبق ذكره، صـ٣٨.
(١٧) توفيق زياد، عن الأدب والأدب الشعبى فى فلسطين، بيروت، دار العودة، ١٩٧٠ صـ١٠١.
(١٨) المصدر نفسه صـ١٠٢.
(١٩) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره صـ٧٧.
(٢٠) المصدر نفسه، صـ٧٢.
(٢١) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره صـ٧٤.
(٢٢) نمر سرحان ، موسوعة مصدر سبق ذكره، صـ٦٠.
(٢٣)الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره صـ٨٢.
(٢٤) زياد، مصدر سبق ذكره، صـ٧٤.
(٢٥)جريس، مصدر سبق ذكره صـ١٣٥.
(٢٦) نمر سرحان ، خمسون .. مصدر سبق ذكره صـ١٢٥ -١٤٩.
(٢٧) جلسة مع عبد القادر ياسين فى منزله بالقاهرة ، ٢٠٠٤/٢/١٥.
(٢٨) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره صـ٨١.
(٢٩) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣٠) سرحان خمسون.. مصدر سبق ذكره صـ١٢٥ - ١٤٩.
(٣١) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره صـ٨١.
(٣٢) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
(٣٣) جريس، مصدر سبق ذكره صـ٧٧- ١٠٣)
(٣٤) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره صـ٧٩.
(٣٥) المصدر نفسه صـ٨٠.
(٣٦) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
(٣٧) جريس، مصدر سبق ذكره، صـ٣١٦.
(٣٨) المصدر نفسه، صـ٧٨.
(٣٩) الموسوعة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره صـ٧٩.
(٤٠) سرحان، موسوعة.. مصدر سبق ذكره صـ٦٢.
(٤١) جلسة مع عبد القادر ياسين، مصدر سبق ذكره.
(٤٢) باروت، مصدر سبق ذكره، صـ٣٠١-٣٠٢.
(٤٣) المصدر نفسه صـ٣٠٢.

شعر

جنين...

سليمان دغش

تقتربين الآن منا
خطوة أخري
ويمضى دمنا حراً
إلى نبض البلاد..!

كم من دم تحتاج هذى الأرض
كى يتحد الطين
على قاعدة الخلق الإلهى
ببرق الروح فينا
كم من الموت سيكفي
هذه الجولة كى نؤمن
إن الفجر لم يسقط على قارعة
الدرب
كسرج

طيرته الريح عن ظهر الجواد...

كم من رماد
سوف يكفى طائر الفينيق
كى تحتفل العنقاء
بالميلاد فى جنين
من تحت الرماد...
تقتربين الآن منا
رغم هذا الموت أن الموت
من عاداته أن يفصل الأرواح
عن أجسادنا
هل كانت الأجساد فينا
غير ظل الروح فى وعد الجهاد...

هل كانت الأرواح فى أجسادنا
إلا احتمالاً بورود الماء
فى صحراء هذا العمر
أو ورد الردي
فى دمنا المسفوك حبراً
لنشيد لم نعلقه على قبلتنا
الأولى
ولم يكتب
بحبر أو مداد...

يا أيها الدورى حلق
فى فضاء الروح، ما شئت

فهذا أفقك المحتوم
والمختوم
فى طلقة موت
ضاق حتى الصفر
فى مرمى الزناد...

تقتربين الآن منا
وعلينا أن نعد الروح للفردوس
جربنا جحيم الأرض
يا الله
جربناه
خمسين جحيما
آه يا فردوسنا المفقود
ما بين آنين الروح فى أجسادنا
أو بين أنات الفؤاد...

عذراً إذا جئناك موتي
فى ثياب العرس
لم نحلم بغير القدس
فى مينائنا المحفوف بالنورس
حتى آخر النرجس فى مرآة هذا البحر
عذراً
لم نكن نعرف أن الغيم
لا يمطر ماء المزن إلا حين
يغشاه السواد

لا شىء فى هذا الحطام الغض
إلا لوحة الشيطان
فوق الأرض
هذا لحمنا المنثور
هذا عظمنا المكسور
هذا دمنا يا آلة التصوير
فى أقمار هذا العصر
إن اللوحة امتدت
فلا تكترثى بالسطح
غوصى فى التفاصيل لكي
تكتشفي
فى لوحة الشيطان
ظل السندباد..

تقتربين الآن منا
خطوة أخرى
ويمضى دمنا حراً
إلى نبض البلاد..!!

شعر

الموجة عودة

معين شلبية

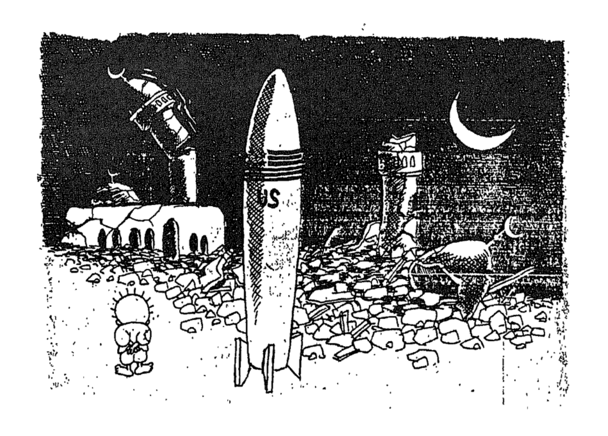
ولماذا أسامح يا أصحاب؟
هل أحد منكم يحمل أمتعة الصبح مكاني
هل من يقرأ فى حزنى النكبة
ويشارك فى موت الليل مقاساة العتمة
ويمزق شريانا فى أحشاء زماني
كانت فى قلبى تتفتح زهرة
كانت فى روحى زنبقة مرة
مر العمر ويا ليته .. ما مر:

كانت فى قلبى تتفتح طفلة
تتململ فى رحم الأحزان.. تعاني
كانت فى روحى أنثي

ترسم أجنحة الشمس وأعقاب البسمة
لكن سهاما من قوس أحبائى
بعثت فى عز الصبح إلى روحى.. فأصابت!

ماذا أفعل يا أصحاب؟
هل يوجد من يحمل منكم أتعاب الأمة
هل أحد منكم يقرأ أسفار البحر
ويرشف من قاع الكأس بقايا الجمرة؟
وتقول الطفلة:
ماذا أفعل كى تجعلنى حبلى!؟

ماذا أكتب يا أغراب؟
هل يوجد من يفهم فيكم ما قد أكتب؟
قد أكتب عنكم كل خطاياكم
وأعانق فيكم فى عز الظهر عذابي
لتكون الثورة
لتكون الثورة
لتكون الثورة...
ماذا أعمل يا عشاق؟
هل أحد منكم يعرف طعم الجرح المالح
فى صدر القبلة؟
هل أحد منكم يعرف كيف يكون الحب
على جسر العودة؟
هل أحد منكم يعرف كيف تغيب الروح
على خصر الخيمة؟
هل أحد منكم يعرف كيف يجوع القلب



وتنتحر الشهوة..؟!

ماذا أفعل يا أحباب؟
سراب هذا.. هذا سراب
واصل شهوتك المائية
واصل أحلام الزوجة
فغدا ستعانق تلك الموجة
الموجة عودة
الموجة عودة
الموجة عودة.

قصة

كلاكما قربان

منال خميس - غزة

هو مثل حائط عتيق يشعر أن وجوده على الأرض مؤامرة غامضة لا علاقة له بها «مؤامرة مؤنثة الأطراف» كما يحلو له أن يسميها ولكنه يحاول أن يتكيف معها، حين التقاها أول مرة تناظرا قال لها: إن القانون ذكر والفوضى أنثى ولتحسم هى الحرب قالت: الموت ذكر، الحياة أنثى.

هو رسم ورسم ورسم، كانت كل لوحاته نساء، لم يرسم غير النساء... مليكات رائعات يحملن بالحرية والانطلاق، بعيدات تظللهن نسمات شفيفة من الرقة والجمال، وكانت مليكاته غامضات عبقريات إذا ما ابتسمن سجد لهن الندي. إلى أن وجدها فلم يرسم غيرها.

هى امرأة تهطل حكايا وأحلاما تنسج فرحها الخاص ببهاء «الأنثى مفتاح الأرض» وبالنسبة له كانت أشبه ما يكون بفخ نصبه أحد ما لعابر مطمئن.. تسللت تلك المرأة العازفة إلى لوحته حسب الأسطورة

الإغريقية التى تقول «إن الرجل والمرأة كانا جسداً واحداً أغضب الآلهة فعاقبته الآلهة بفصله عن بعضه البعض (ذكراً وأنثي) وقضت بأن يعيشا طوال حياتهما فى جحيم البحث أحدهما عن الآخر».

هى غنت له قصيدتها الإيرانية المفضلة:

وجودى كله آية مظلمة

تكررك دائماً فى نفسها

ستأخذك إلى سحر الاندهاش

والعود الأبدى.

أنا تأوهتك فى هذه الآية: آه...

أنا، بهذه الآية، ربطتك

بالشجر

والماء

والنار.

هو برغم حديثه المخادع عن الفضيلة والحب والنقاء كان ظلاماً رغبت هى فى إشباع روحه بالنور فأصبح يشع بها وتشع به، لم يكن بينهما برزخ أو مسافة أتته وكأنه لا مخلوق سواه.

هى مرضت ذات يوم وتوقفت عن العزف، هو ابتعد قليلاً هى كانت على ثقة بلهاء بأن كل شىء على ما يرام، هو كان ثمة شىء يسقط فيه فأصبحت ألوانه مراوغة مثل أزرق شاحب.

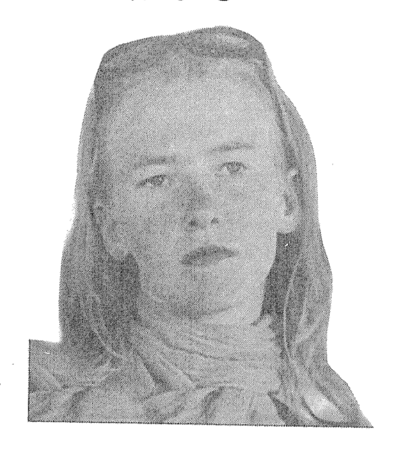
هى حين اكتشفت الخديعة ليس الألم ما أحست به آنذاك بل شىء أقسى وأعتى.

وهو حين أدرك أنه بدأ يثير فيها مشاعر تافهة ولأنه يعرف ولعها بالأساطير أقسم لها بلهجة غادرة كريح دوارة «أحبك وسأحضر لك جثة الوجود ذات الأبعاد الضائعة».

هى تعرف أنه بدأ يمارس لزوجة العبث وأصبح يكذب فابتعدت
هى الآن وحدها يلفها الليل والصمت ولحن أغنيتها الإيرانية الحزين
الآن، فى الليل، شىء ما يحدث
وراء تلك النافذة يرتجف الليل
والأرض تكف عن الدوران.
وراء تلك النافذة شىء ما غامض:
قلق لى ولك.
يا من كله أخضر
يداك اللتان..
هو الآن هناك كما تقول الحكاية «فى الكرمل حيث الإله نسى الأشياء بعد أن شعر بجوع شديد على منحدر ترابى يتمدد هو وأخرى».
امرأة بالأسود
ورجل مرتبك
وسماء آيلة لمطر خفيف
الأخرى فى حضنه خائفة مرتعشة
والعازفة فى الجوار
وحدها ترقب المشهد
مأخوذة فى اشتباك النار مع النار.

رسائل راشيل كورى

« بلاغ عن الإبادة »



ترجمة: لميس النقاش

تقديم: فريدة النقاش

لم يخطر ببال الرسامة الشاعرة «راشيل كورى» ابنة الثلاثة والعشرين عاما أن التغيرات العاصفة التى شهدها العالم بعد سقوط الاتحاد السوفيتى وهيمنة القطب الأمريكى الواحد على مقدرات البشر سوف تطلق كل هذه الوحشية من عقالها ليبدو قول كاتبنا «نجيب محفوظ» الذى لابد أنها كانت قد سمعت به أو قرأت له إن «الإنسان جديد والوحش قديم» وكأنه نبوءة توقعت هذه التحولات.

ولا أعرف إن كان من حسن حيظ «راشيل» أو سوئه أن موتها الفاجع تحت جرافة إسرائيلية كانت هى تسعى لمنعها من هدم بيت فلسطينى فى رفح فى السادس عشر من مارس ٢٠٠٣ قد حدث قبل غزو العراق بأربعة أيام، إذ كانت الفتاة المفعمة بالحساسية وبالأحلام قد شهدت ما يكفى من الألم فى فلسطين حتى أخذت تعيد النظر كما تبين رسائلها لا فى حياتها هى وحدها وإنما فى حياة الأمريكيين الميسورين جميعاً بل وتحمل رسائلها إدانة غاضبة لكل الصامتين «كيف نسمح للعالم بأن يكون بتلك البشاعة». «فإذا كنت أشعر بالغضب الشديد لمجرد دخولى القصير وغير الكامل إلى ذلك العالم الذى ينتمى إليه هؤلاء الأطفال فإننى أتساءل كيف سيشعرون إذا دخلوا إلى العالم الذى أعيش فيه».

بحثت لحياتها عن معنى ووجدته.. فماذا يبقى للإنسان لو خلت الحياة من المعني.

تركت الفتاة دراستها كطالبة جامعية فى واشنطن ومدينتها الصغيرة «أوليمبيا» لتلحق بمجموعة التضامن العالمى مع شعب فلسطين وتعيش مع البسطاء يقتسمون الخبز والماء الشحيح وينتظرون القنابل ويتحركون فى إطار أبراج المراقبة، ولا يعرفون إن كانوا سيبقون أحياء حتى اليوم التالى.

وكان طبيعياً أن تكتشف «راشيل» أن أطفالاً ممن يبلغون الثامنة يعرفون عن زمن العولمة وتوازنات القوى فيه أكثر مما كانت هى شخصيا تعرف منذ بضع سنوات.. ولكنها عرفت هى أيضا أكثر مما ينبغي.. عرفت لحد الموت.

ويود ملتقى تنمية المرأة فى احتفاله بها أن يقول لها ولأسرتها وللعالم إن المثل

الذى قدمته هو رسالة للإنسانية كلها تقول لها وللعالم إن الليل زائل، فيقظة الضمير والسخاء والكبرياء الإنسانى «لراشيل» ستظل علامات على ما هو قادم. إنها هى تجسيد ناصع البهاء للحركة المناهضة للعولمة والأمبريالة ومن أجل عولمة بديلة إنسانية وعادلة.. تؤمن بأن الإنسان سوف ينتصر على الوحش ذات يوم.. وتقول مع دستيوفسكى شاعر الروح «إن الإنسان شرير لأنه لا يعرف أنه طيب» وتلك هى رسالتك النبيلة للإنسانية أيتها الشاعرة .ولك كل الحق إذا كان إيمانك بأن الإنسان بطبيعته طيب قد بدأ يهتز، إذ أن حروب الإبادة والاستغلال والتجويع وإهدار الكرامة فى فلسطين والعراق وأفغانستان في جوانتانامو وأبو غريب لا تدمر ضحاياها وحدهم وإنما تدمر الجلادين قبلهم وتحول العالم إلى غابة ترعى فيها وحوش ضارية.

قابلت الحكومة الأمريكية جريمة قتل «راشيل» بفتور بالغ لم يصل حتى إلى حد الإدانة بل اكتفت بطلب إجراء تحقيق حرصا على إغضاب إسرائيل، وقام والد «راشيل» بتحريك دعوى ضد شركة «كاتربلر» الأمريكية التى منحت الجرافة لإسرائيل مع مساندة غير مشروطة من قبل الإدارة الأمريكية وامتنع نواب وشيوخ عن مساندة الأبوين خوفا من ضياع أصوات الناخبين.

وحين قرر فريق مسرحى فى نيويورك تقديم عرض عن حياة «راشيل» من رسائلها تكاتفت مؤسسات صهيونية ومحافظة قوية لوضع العراقيل بدعوى أن العرض معاد للسامية وقيل أنه تأجل للعام القادم.

وذلك بعد أن كانت العاصمة البريطانية لندن قد شهدت على امتداد عام ٢٠٠٥ عرضا عن حياتها نجح نجاحا كبيرا تعبيراً ضمنيا عن الضمير الإنسانى الذى ينتصر لقيم العدالة والحرية والكرامة الإنسانية وحقوق الشعوب وينفر من القهر والإذلال والتوحش.

ستبقى «راشيل» فى ذاكرة الإنسانية مصدرا دائماً للنور الذى يبدد العتمة، ويضئ طريق المكافحين الذين تهتز على وقع أقدامهم عروش الظالمين.. وستسقط عروش الظالمين.

الرسالة الأولى

٧ فبراير ٢٠٠٣

أمى

تحياتى للأصدقاء والأهل وللجميع

مضى الآن أسبوعان وساعة وأنا فى فلسطين، وما زلت لا أجد الكلمات لأصف ما أشاهده. وأجد صعوبة بالغة فى التفكير فيما يحدث هنا وأنا جالسة أكتب لكم فى الولايات المتحدة - وكأننى بذلك أطل على عالم خيالى من الرفاهية. لا أدرى كم من الأطفال هنا عاشوا فى بيوت لا تمزق حوائطها شظايا القنابل ومن غير أبراج مراقبة على مرمى البصر يراقبهم من خلالها جيش احتلال. أعتقد، وإن كان لا يمكن أن أجزم بذلك، أن حتى أصغر الأطفال هنا يعرف أن الحياة ليست هكذا فى كل مكان فى الدنيا. فقبل حضورى بيومين قتلت دبابة إسرائيلية طفلا فى الثامنة من العمر، وفى حديثى مع الأطفال ظلوا يهمسون إلىّ باسمه: "على"، أو يشيرون إلى الملصقات التى تحمل صورته على الحوائط. ويحب الأطفال هنا كذلك أن يجعلونى أتحدث بلغتى العربية الضعيفة جدا فيسألوننى "كيف شارون؟" و"كيف بوش؟" ويضحكون حين أجيبهم "بوش مجنون" و"شارون مجنون".

ليس هذا رأيى بالضبط، وبعض الكبار الذين يعرفون الإنجليزية يصححون ما أقوله. "بوش مش مجنون، بوش صاحب بيزنس،" حاولت اليوم أن أتعلم كيف أقول "بوش أداة"، ولكننى لا أعتقد أن الترجمة كانت دقيقة. وعلى كل حال فبعض الأطفال هنا ممن يبلغون الثامنة يعرفون عن زمن العولمة وتوازنات القوى فيه أكثر مما كنت أنا شخصيا أعرف منذ بضعة سنوات، على الأقل فيما يخص إسرائيل.

ومع ذلك أعتقد أنه لا القراءة أيا كان مقدارها، ولا حضور المؤتمرات، ولا مشاهدة الأفلام الوثائقية وسماع الشهادات، كان يمكن أن يعدّنى لاستقبال الوضع كما هو فى الواقع. هذا الواقع ببساطة لا يمكن تخيله من دون رؤيته بالعين، وحتى حين تراه فإنك تعرف جيدا أن تجربتك ليست هى الواقع أبدا، فهناك المشكلات التى سيواجهها

الجيش الإسرائيلى إذا ما أطلق النار على مواطن أمريكى غير مسلح، كما أننى أملك المال الذى يسمح لى بشراء المياه حين يدمر الجيش آبار المياه، والأهم إننى أستطيع الرحيل وقتما أشاء. لم يسبق لأى من أفراد عائلتى أن قتل وهو يقود سيارته بصاروخ يطلقه برج فى نهاية شارع رئيسى ببلدتى. عندى بيتى. ومسموح لى أن أرى البحر. ونظرياً على الأقل يصعب كثيرا أن يتم احتجازى لشهور أو سنوات من دون محاكمة (هذا لأننى مواطنة أمريكية بيضاء، على عكس الكثيرين غيرى.)

وعندما أخرج من بيتى لأذهب للمدرسة أو العمل أكون مطمئنة لثقتى الكبيرة أن عسكريا مدججا بالأسلحة الثقيلة لن يقطع علىّ الطريق من نقطة التفتيش الواقعة بين بيتى فى خليج ماد إلى وسط مدينة أوليمبيا، عسكرى يملك أن يقرر إذا كان بإمكانى أن أمضى فى طريقى، وإذا ما كان يمكننى أن أعود إلى بيتى حين أنتهى من عملى. فإذا كنت أشعر بالغضب الشديد لمجرد دخولى القصير وغير الكامل إلى ذلك العالم الذى ينتمى إليه هؤلاء الأطفال، فإننى أتساءل كيف سيشعرون إذا دخلوا إلى العالم الذى أعيش فيه؟

أنهم يعلمون أن الأطفال فى الولايات المتحدة لا يقتل آباؤهم رميا بالرصاص ويعرفون أن الأطفال يذهبون أحيانا لرؤية البحر. ولكن ما الذى سيحدث لو جاءت اللحظة التى تستطيع فيها رؤية البحر وتعيش فى مكان هادئ حيث لا قلق على توفر المياه إذ لا تسرقها البولدوزرات ليلا، ويمضى المساء بدون أن تتساءل إذا ما كنت ستستيقظ من نومك على انهيار مفاجئ لحوائط المنزل بالليل، وتلتقى بأشخاص لم يفقدوا عزيزا أبدا، وتعيش فى عالم لا تحيطك فيه أبراج للقتل ودبابات و"مستوطنون" مسلحون بالإضافة إلى ذلك الحائط المعدنى العملاق، فهل يمكن أبدا وقتها أن تغفر للعالم سنوات طفولتك تلك التى قضيتها تحاول فقط البقاء مقاوما لذلك الخناق المضروب حولك من رابع أكبر قوة عسكرية فى العالم تدعمها القوة العظمى الوحيدة فى العالم، وهى تحاول محوك من على أرض وطنك؟ هذا هو السؤال الذى يشغلنى حين أفكر فى هؤلاء الأطفال. أننى أفكر فيما سيحدث إذا كانوا حقا يعرفون.

وبعد كل هذه الأفكار المتناثرة، أقول إننى هنا فى رفح، مدينة من ١٤٠ ألف نسمة،

ستون بالمائة منهم تقريبا من اللاجئين، وكثير من هؤلاء هجّروا مرتين أو ثلاث مرات. رفح كانت موجودة قبل ١٩٤٨ ولكن أغلب الناس هنا إما مهجّرون أو أبناء مهجرين من الذين أبعدوا عن ديارهم فى فلسطين التاريخية أى إسرائيل الحالية. وقد قسمت رفح إلى قسمين عندما تم تسليم سيناء إلى مصر.

ويبنى الجيش الإسرائيلى حاليا حائطا يبلغ ارتفاعه ١٤ مترا يفصل رفح الفلسطينية عن الحدود، خالقا بذلك أرضا محايدة على أنقاض البيوت الواقعة على الحدود. لقد قامت البلدوزرات بتسوية ستمائة واثنين من البيوت بالأرض طبقا لإحصاءات اللجنة الشعبية للاجئين برفح. وهناك عدد أكبر من ذلك من البيوت التى تم هدم أجزاء منها.

واليوم وأنا أسير فوق تلك الأنقاض التى كانت يوما بيوتا، سمعت أحد الجنود المصريين ينادى علىّ من الجهة الأخرى من الحدود "Go! Go!" [ابتعدى، ابتعدى] فقد كانت هناك دبابة قادمة. وبعدها لوح إلىّ قائلا "What's your name?" [ما اسمك؟]. شىء ما غير مريح فى ذلك الود والفضول، فقد ذكرنى إننا جمعياً لسنا سوى أطفال لدرجة ما يتملكهم الفضول. أطفال مصريون ينادون على تلك المرأة الغريبة التى تمشى فى طريق الدبابات، وأطفال فلسطينيون تقذفهم الدبابات بنيرانها عندما يطلون برؤسهم من خلف الجدران لمراقبة ما يحدث، وأطفال من مختلف الجنسيات يقفون أمام الدبابات رافعين شعارتهم.

وأطفال إسرائيليون مجهولو الهوية داخل الدبابات يزعقون أحيانا ويلوحون أحيانا أخرى، كثير منهم مجبر على الوجود هنا وكثير منهم يحمل من العدوانية ما يجعله يقذف تلك البيوت بمجرد أن نبتعد عنها.

وهناك بالإضافة إلى الوجود الدائم للدبابات على طول الحدود وفى القطاع الغربى بين رفح والمستوطنات الواقعة على ساحل البحر، هناك أبراج جيش الدفاع الإسرائيلى التى لا تعد ولا تحصى والممتدة على مدى البصر على أطراف الشوارع. بعضها أبراج الجيش المعدنية الخضراء، ولكن البعض الآخر أبراج ذات سلالم حلزونية غريبة مغطاة بما يشبه الشباك بحيث لا يمكن معرفة ما يدور بداخلها.



وبعض الأبراج مخبأة خلف المبانى التى تغطى الأفق. منذ أيام تم بناء برج جديد فى المدة التى قمنا فيها بغسل بعض الملابس والذهاب للبلدة مرتين لتعليق لافتات.

وتشكل الأجزاء الواقعة على الحدود رفح القديمة وسكنها عائلات فلسطينية عاشت هناك لما يزيد على قرن، ومع ذلك فإن الفلسطينيين لا يسيطرون، طبقا لاتفاقيات أوسلو، سوى على المخيمات التى أقيمت ١٩٤٨ فى وسط المدينة. ومع ذلك ففى حدود ما شاهدت لا يكاد يوجد مكان لا يشرف عليه برج من هذه الأبراج. والمؤكد أنه ما من بقعة لا تطالها طائرات الأباتشى أو الكاميرات المخبأة التى نسمع أزيزها فوق المدينة لساعات طويلة.

أجد صعوبة هنا فى الوصول إلى أخبار العالم الخارجى، ولكن يبدو مما أسمعه أن تصعيد الحرب على العراق أصبح حتميا. أما هنا فالمخاوف تتزايد من "إعادة احتلال غزة". وهو ما يحدث بصفة يومية بدرجات متفاوتة، ولكن الخوف على ما أعتقد هو أن تدخل الدبابات إلى الشوارع وتبقى هناك، بدلا من دخولها بعض الشوارع ثم الانسحاب بضعة ساعات أو أيام لتراقب وتطلق النار من على أطراف التجمعات السكنية. ويجدر بمن لم يفكروا فى عواقب هذه الحرب بالنسبة لسكان المنطقة كلها أن يفعلوا ذلك الآن.

وأتمنى كذلك أن تأتى إلى هنا. ففى الفترة الماضية كان عددنا يتراوح ما بين خمسة وستة نشطاء دوليين. وقد طلبت هذه الأحياء السكنية منا تواجدا وهى يبنا × وتل السلطان وحى السلام والبرازيل وبلوك J وبلوك D كما أن هناك حاجة لوجود دائم فى الليل عند البئر الواقع على أطراف رفح منذ أن دمر الجيش الإسرائيلى البئرين الكبيرين.

وطبقا لهيئة المياه فإن تلك الآبار التى تم تدميرها فى الأسبوع الماضى كانت تشكل نصف إمدادات المياه برفح. كثير من التجمعات السكنية طالبت بوجود نشطاء دوليين أثناء الليل لمحاولة حماية البيوت ضد مزيد من الهدم. وبعد حوالى العاشرة مساء يصعب كثيرا التنقل بالليل حيث يتعامل الجيش الإسرائيلى مع كل من فى الشارع على أنه من المقاومة ويطلق النار عليه. وبالتالى فنحن كما هو واضح قليلون جدا.

ما زلت أعتقد أن بلدتى، أوليمبيا، ستجنى الكثير وستقدم الكثير إذا ما هى التزمت بعلاقة تضامن مع المدنيين بينها وبين رفح. لقد عبر بعض المدرسين والأطفال عن رغبتهم فى تواصل عبر البريد الإلكترونى، ولكن هذا لن يكون سوى أبسط وأقل الأعمال التضامنية التى يمكن القيام بها.

الكثيرون يرغبون فى إسماع أصواتهم، وأعتقد أن علينا أن نستخدم بعضاً مما لدينا من امتيازات كنشطاء دوليين حتى يمكن لهذه الأصوات أن تسمع مباشرة فى الولايات المتحدة . وليست "مفلترة" من خلال النشطاء الدوليين ونواياهم الحسنة مثلى. هذا ليس إلا بداية تعلمى، الذى أتصور أنه سيكون تعلما مكثفا، حول قدرة الناس على التنظيم رغم كل العقبات والمقاومة رغم كل الظروف. شكرا على كل الأخبار التى تصلنى من الأصدقاء فى الولايات المتحدة. لقد قرأت للتو تقريرا من صديق قام بتنظيم جماعة للسلام فى شليتون بواشنطون واستطاع أن يكون عضوا فى الوفد المشارك فى المظاهرة الاحتجاجية الكبرى فى ١٨ يناير فى واشنطون العاصمة. الناس هنا يشاهدون وسائل الإعلام وقد أخبرونى اليوم مرة أخرى عن المظاهرات الكبيرة التى وقعت فى الولايات المتحدة و"المشكلات التى تواجهها الحكومة" فى بريطانيا. فشكرا لأننى لم أعد أشعر إننى بلهاء حينما أقول للناس هنا أن الكثيريين فى الولايات المتحدة لا يؤيدون سياسات حكومتنا، فإننا نتعلم من التجارب فى كل أنحاء الأرض كيف نقاوم.

● يبنا : قسم من مخيم رفح يقيم فيه المهاجرون من قرية يبنا فى فلسطين المحتلة . والبرازيل : هو مقر القوات الدولية قبل حرب ١٩٦٧

الرسالة الثانية

أمى

الجيش الإسرائيلى قام بالفعل بحفر الطريق إلى غزة وتم إغلاق نقطتى التفتيش كلتيهما . وهو ما يعنى أن الفلسطينيين الراغبين فى التسجيل للفترة الدراسية القادمة فى جامعاتهم لن يتمكنوا من ذلك. ولا يستطيع الناس الذهاب إلى أعمالهم،

ولا يستطيع من قفل عليه الطريق قبل عودته أن يعود لبيته. ولن يستطيع النشطاء الدوليون حضور اجتماع كان مقررا غدا فى الضفة الغربية. ولعلنا نستطيع الوصول إذا ما قمنا باستغلال امتيازاتنا كأفراد ينتمون للعرق الأبيض والمجتمع الدولى استغلالا حقيقيا، وإن كان فى ذلك احتمال التعرض للقبض أو للترحيل، برغم من أننا لن نكون قد خالفنا القانون بأى شكل.

لقد تم تقسيم قطاع غزة الآن إلى ثلاثة أجزاء. وهناك كلام حول "إعادة احتلال غزة" ولكنى أشك بشدة أن هذا سيحدث، فهو سيكون فى اعتقادى خطوة غبية سياسيا وجغرافيا من جانب إسرائيل فى الوقت الحالى. أعتقد أن الأرجح هو قيام إسرائيل بغارات صغيرة لا تلتقطها رادارات المجتمع الدولى الغاضبة، أو ربما استخدموا "ترحيل السكان" الذى طالما لوحوا به.

أنا مستقرة فى رفح الآن، وليس لدى أى خطط للتحرك تجاه الشمال. مازلت أشعر إننى فى أمان نسبى، وأعتقد أن أكثر ما يمكن أن يصيبنى فى حالة غارة واسعة النطاق هو القبض على. أن خطوة إعادة احتلال غزة سوف تتسبب فى غضب أكبر بكثير مما تسببه سياسة شارون للاغتيال والاستيلاء على الأراضى فى وقت السلم والمفاوضات، والتى كانت ناجحة حتى الآن فى إقامة المستوطنات فى كل مكان بحيث تستأصل عمليا على المدى أى فرصة لتقرير المصير للفلسطينيين. ولتعلمى أن لدىّ الكثير من الأصدقاء الفلسطينيين الذين يعتنون بى. وقد أصبت ببعض البرد وحصلت على مشروبات جميلة من الليمون لعلاجى. كما أن المرأة التى تحفظ مفتاح البئر حيث ننام لا تكف عن سؤالى عنك. وهى لا تتكلم أية إنجليزية ولكنها تسأل عن أمى كثيرا – وتريد أن تتأكد إننى أتصل بك.

حبى لك ولأبى ولسارة وكريس وللجميع

راشيل

الرسالة الثالثة

٢٧ فبراير ٢٠٠٣

(إلى والدتها)

أحبك. وأشتاق إليك حقا. أرى فى كوابيسى دبابات وبلدوزرات حول منزلنا وأنا وأنت فى الداخل. أحيانا ما يعمل الأدرينالين لأسابيع وكأنه بنج ثم فى المساء أو الليل يصيبنى شىء من واقع الحالة التى نعيشها. أننى حقا أشعر بالخوف على الناس هنا. بالأمس شاهدت أبا يصحب طفليه الصغيرين ممسكا أيديهما ليصبحوا جميعا تحت مرمى بصر دبابات وبرج يعلوه قناص وبولدوزرات وعربات جيب، كان الأب يعتقد أن الجيش على وشك تفجير بيته. بقينا جينى وأنا داخل المنزل مع بعض النساء وطفلين رضيعين. كان خطأ فى ترجمتنا هو ما جعله يتصور أن بيته على وشك أن يتم تفجيره. والحقيقة أن الجيش الإسرائيلى كان بصدد تفجير قنبلة فى أرض مجاورة، كانت المقاومة الفلسطينية على ما يبدو قد زرعتها.

فى هذه المنطقة يوم الأحد تمت محاصرة ١٥٠ رجلا واقتيادهم خارج الحى السكنى ونيران البنادق فوق رؤوسهم وحولهم، فى حين قامت الدبابات والبولدوزرات بتدمير ٢٥ صوبة زراعية– كانت مصدر الرزق الوحيد لثلاثمائة إنسان. وقد تم زرع القنبلة أمام الصوب الزراعية مباشرة – تماما عند نقطة دخول الدبابات تعبرها فى ذهابها ومجيئها المتكرر. لقد أفزعتنى فكرة أن هذا الرجل شعر أن خروجه فى الشارع أمام الدبابات مصطحبا طفليه أكثر أمانا من البقاء فى المنزل. وقد خفت حقا أن يتم ضربهم جميعا بالرصاص وحاولت الوقوف بينهم وبين الدبابة. إن هذا مشهد يومى ولكن هذا الأب السائر بطفليه الصغيرين فى حزن بالغ أثار إنتباهى أكثر فى تلك اللحظة. على الأرجح لأننى شعرت أنه غادر البيت بسبب مشكلاتنا فى الترجمة.

لقد فكرت كثيرا فيما قلته لى على التليفون حول العنف الفلسطينى وما يترتب عليه من تعقيد الموقف. منذ سنتين كان فى رفح ستون ألفا من العمال الذين يذهبون للعمل فى إسرائيل، لا يتمكن الآن سوى ٦٠٠ منهم من الوصول لعملهم هناك، وقد انتقل

أغلبهم من بيوتهم بسبب نقاط التفتيش الثلاث بين مستوطنة غوش قطيف وعسقلان (أقرب مدينة إسرائيلية) والتى جعلت من المسافة التى كانت تقطعها السيارة فى أربعين دقيقة، رحلة من اثنى عشرة ساعة وربما رحلة مستحيلة. بالإضافة إلى ذلك فقد تم تدمير كل ما كان يعتبر فى ١٩٩٩ مصدرا للنمو الاقتصادى فى رفح تدميرا كاملاً: ــــ مطار غزة الدولى (تم هدم الطريق السريع للطائرات runway وغلق المطار كلية)، التجارة عبر الحدود مع مصر (الآن يوجد على هذه الحدود برج عملاق للقناصة الإسرائيليين فى وسط طريق العبور)؛ المنفذ للبحر (تم قفله تماما فى السنتين الماضيتين عن طريق نقطة تفتيش ومستوطنة غوش قطيف). ان عدد البيوت التى تم تدميرها فى رفح منذ بداية الانتفاضة يبلغ حوالى ٦٠٠ بيتا، معظم سكانها إناس لا علاقة لهم بالمقاومة إنما صادف وقوع منازلهم على الحدود. أعتقد أن رفح تعتبر الآن فى الإحصاءات الرسمية أفقر مكان فى العالم. وحتى وقت قريب كان يوجد فى هذا المكان طبقة وسطى. كما سمعنا هنا عن شحنات الورود التى كانت تصدر إلى أوروبا فى الماضى وكانت تتعطل لأسبوعين فى معبر إيرز إلى أن يقوم الأمن بفحصها. ولك أن تتخيلى قيمة ورود عمرها أسبوعان بعد القطف فى الأسواق الأوربية، فما كان إلا أن جفت هذه التجارة. وبعد ذلك تأتى البولدوزرات لتقتلع مزارع الخضروات و حدائق الفاكهة. فما الذى يبقى للناس؟ اخبرينى إن استطعت التفكير فى شىء. فأنا لا أستطيع.

لو أن أحدا منا تعرض لهذا: حياته وكل وسائل عيشه تحت حصار كامل، يعيش مع أطفاله فى مكان يضيق عليهم مدركا، بناء على خبرات سابقة، أن الجنود والدبابات والبولدوزرات قد تهاجم فى أى لحظة وتدمر كل الصوب الزراعية التى أمضى زمنا يرعى ما بها من زرع، ثم يقومون أثناء ذلك بضرب البعض وباحتجازه أسيرا مع ١٤٩ رجلا آخر لعدة ساعات، فهل تعتقدين إننا ربما كنا سنحاول وقتها استخدام شيئ من العنف للدفاع عما تبقى لنا من فتات؟ أننى أفكر فى هذا خاصة حين أرى أشجار البساتين والصوب الزراعية وأشجار الفكاهة يتم تدميرها ــــ بعد سنوات من الرعاية والزراعة. أفكر بك وبالوقت الذى تستغرقه النباتات لتكبر والعمل والحب الذى

يتطلبه ذلك. إنني أؤمن حقا أن معظم الناس فى موقف مماثل ستدافع عن نفسها بأقصى ما تستطيع. أعتقد أن عمى جريج كان سيفعل ذلك. أعتقد أن جدتى على الأغلب ستفعل ذلك. أعتقد إننى كنت سأفعل ذلك.

تسألينني عن المقاومة السلمية.

عندما تم تفجير القنبلة بالأمس تكسر زجاج نوافذ بيت تلك العائلة. كنت لحظتها أهم بشرب الشاى الذى قدموه إلى واللعب مع الطفلين الصغيرين. إن ذلك صعب على جدا الآن. أشعر بالغثيان من ذلك الاهتمام الذى يحيطنى به طوال الوقت وبمنتهى الرقة ناس يواجهون الهلاك. أعرف أنه فى الولايات المتحدة يبدو كل هذا وكأنه مبالغة. ولكن صدقينى أن هذه الطيبة الغامرة للناس هنا مع كل ما يحيط بهم من أسباب التدمير المتعمد لحياتهم يجعل كل هذا يبدو لى وكأنه غير حقيقى. أننى لا أصدق حقا أن كل هذا يحدث من دون أن تتصاعد احتجاجات العالم. وأتألم حقا، كما كنت أتألم سابقا، حين أشهد كيف نسمح للعالم أن يكون بتلك البشاعة. لقد شعرت بعد حديثى معك إنك ربما لا تصدقيننى تماما. وأعتقد أنه ربما من الأفضل ألا تصدقينى، لأننى أؤمن بعمق وحق بأهمية التفكير النقدى المستقل. كما إننى أدرك إننى معك أكون أقل حرصا من المعتاد فى محاولة التأكيد على مصدر كل معلومة أقولها. ويرجع هذا إلى حد كبير إلى معرفتى بأنك تقومين بنفسك بالدراسة والبحث عن المعلومات. ولكننى قلقة بشأن ذلك العمل الذى أقوم به. إن كل تفاصيل الوضع الذى حاولت وصفه لك فيما سبق وغيره يشكل نوعا من السلب والتدمير لقدرة مجموعة من الناس على البقاء على قيد الحياة، وهو تدمير هائل وإن كان تدريجياً وخفياً فى معظم الأحوال. هذا ما أراه هنا. أن الاغتيالات والهجمات الصاروخية وقتل الأطفال كلها فظائع، ولكنى أخشى أن يتوه منى السياق فى تركيزى على تلك الفظائع. أن الأغلبية من الناس هنا، حتى لو كان عندهم الإمكانيات الاقتصادية للهرب، وحتى لو كانوا فعلا راغبين فى التخلى عن المقاومة على أرضهم والرحيل (وهذا ربما يكون أقل أهداف شارون المحتملة شناعة) فإنهم لا يملكون أن يرحلوا لأنهم لا يستطيعون الوصول إلى إسرائيل من أجل تقديم طلبات تأشيرات لبلدان

أخرى ولأن البلدان الأخرى لن تقبلهم (سواء كانت بلدنا أم البلدان العربية). وأعتقد أن قطع كل سبل الحياة على إناس محاصرين فى منطقة مغلقة (غزة) لا يملكون الخروج منها هو بمثابة إبادة جماعية حقا. ربما أمكنك البحث عن تعريف الإبادة الجماعية فى القانون الدولى. فأنا لا أذكر التعريف الآن. ان ما أرجوه هو أن أقوم بتقديم الأمثلة الواضحة على كل ما أقول.. فأنا لا أحب استخدام تلك الكلمات الكبيرة. وأعتقد إنك تعرفين ذلك عنى. فأنا أُقدر الكلمات حق قدرها. وأحاول فعلا أن أقدم وصفا دقيقا وأترك للآخرين فرصة استخلاص الاستنتاجات.

على أى حال هذه أفكارى المشتتة. ولكنى أريد أن أكتب لك يا أمى وأن أقول لك أننى شاهدة على هذه الإبادة الجماعية المستمرة والغادرة، وأننى خائفة حقا: وأن إيمانى العميق بأن الإنسان بطبيعته طيب بدأ يهتز. يجب أن يتوقف كل هذا. والأمر يستحق أن نترك جميعا كل ما بأيدينا ونكرس حياتنا من أجل أن يتوقف هذا. ولا أعتقد أن مثل هذا العمل به أى درجة من المبالغة فى الوقت الحالى. مازلتُ أرغب فى الرقص على موسيقى بات بيناتر وأن يكون عندى رجل أحبه ويحبنى وأن أضحك مع زملائى فى العمل. ولكننى أيضا أريد لما يحدث هنا أن يتوقف. ان شعورى هو شعور بعدم التصديق وبالفزع. وبالإحباط.. أنه من المحبط أن يكون هذا هو الواقع الحقير لعالمنا والذى نساهم فعلا فى تحقيقه. لم يكن هذا أبدا ما تمنيناه حين جئنا إلى هذا العالم، لم يكن هذا أبدا ما تمناه الناس هنا حين جاؤوا إلى هذا العالم،وليس هذا بالعالم الذى أردت لى أنت وأبى أن آتى إليه حين قررتما أن يكون لكما طفل. وليس هذا ما كنت أرمى إليه حين نظرت إلى بحيرة capital وقلت "هذا هو العالم الواسع وإنى قادمة إليه" لم أكن أقصد إننى قادمة لعالم حيث يمكننى العيش فى راحة وربما بدون أى تعب على الإطلاق، وبلا أى وعى بأننى أشارك فى حرب إبادة. مزيد من الإنفجارات الكبيرة فى مكان ما على البعد خارج البيت.

لعلنى حين أعود من فلسطين ستنتابنى الكوابيس وأشعر دائما بالذنب لأننى لست هنا، ولكن يمكن لكل ذلك أن يصب فى مزيد من العمل. ان هذه الرحلة هى أحد أفضل الأشياء التى قمت بها فى حياتى. لذلك عندما أبدو وكأنى أتكلم كالمجانين، أو

إذا مـا قـامت القوات الـعسكرية الإسـرائيليـة بإلحـاق أى أذى بى، على عكس مـيلها العنصرى الدائم بعدم إلحاق الأذى بأصحاب البشرة البيضاء، فأرجو أن تعرفى أن السـبب فى ذلك بلا أدنى شك هو إننى أعـيش وسط حـرب إبادة، وإننى بشكل غـير مباشر قد ساهمت فيها وأن الحكومة التى تمثلنى مسئولة مسئولية أساسية عنها.

أحبك أنت وأبى. وأعـتذر عن تلك الخطبة. حـسنا لقـد أعطانى الآن بعض الرجـال حولى بعضا من الفول الذى أريد أن أذهب لآكله وأن أشكرهم عليه!

راشيل

الرسالة الرابعة

٢٨ فبراير ٢٠٠٣

(إلى والدتها)

شكرا لك يا أمى على ردك على رسـالتى الإلكتـرونيـة. أننى أجـد راحـة حـقـا فـيـمـا يصلنى منك ومن كل الذين يهتمون بى.

بعدما كتبت لك قضـيت حـوالى عشر سـاعات بعيدا عن باقى أفـراد المجموعة عند عـائلة فى الخطوط الأمـامـيـة لحى السـلام، الذين أعـدوا لى العشـاء وكـان تلفـزيونـهم متصـلاً بالقنوات الفضـائية. الحجرتان الأمـاميتان للبيت لا تستخدمان لأن رصـاص البنادق قد اخترق حوائطهما قبل ذلك، فتنام العائلة كلها: الأطفال الثلاثة والأبوان فى حجرة الأبوين. أمـا أنا فنمت على الأرض بجوار "إيمان" الابنة الصـغرى واقتـسمنا البطاطين فـيمـا بيننا. وقـد قـمت بمسـاعـدة الابن لإنجـاز واجب اللغـة الإنجليـزية ثم شـاهدنا جـمـيعـا فيلم رعب بعنوان PetCemetery. أعتقد أنهم جميعا ضـحكوا على ما عانيته أثناء مشاهدة الفيلم. يوم العطلة هنا هو الجمعة، وعندما استيقظت من النوم كانوا يشـاهدون GummyBears مـدبلجـة بالعربية. فـأكلت فطورى وجلست لبـعض الوقت مستمتـعة بوجودى وسط البطاطين مع أفـراد العـائلة نشـاهد ما بـدا لى وكـأنه أفـلام كرتون السبت صباحا. ثم ذهبت مشيا إلى حي برازيل حيث يسكن نضال ومنصور

والجدة ورفعت وبقية أفراد العائلة الكبيرة التى تبنتنى وفتحت لى قلبها . (على فكرة منذ أيام أعطتنى الجدة محاضرة بالإشارة كان فيها كثير من النفخ وإشارة إلى شالها الأسود، وقد طلبت من نضال أن يقول لها أن والدتى سيسعدها أن تعرف أن ثمة شخصاً هنا أعطانى محاضرة عما يسببه التدخين من سواد فى رئتى.) وقد قابلت زوجة أخيهم التى كانت تزورهم قادمة من مخيم نصيرات ولعبت مع طفلها الرضيع.

إنجليزية نضال فى تحسن كل يوم. وهو الذى يطلق علىّ "أختى" وبدأ فى تعليم الجدة كيف تقول "Hello. How are you?". فى كل لحظة نسمع الدبابات والبولدوزرات وهى تعبر، ولكن يظل هؤلاء الناس بشوشين حقا مع بعضهم البعض ومعى. عندما أكون مع أصدقائى الفلسطينيين أشعر برعب أقل مما أشعر به وأنا أحاول أن ألعب دور مراقبة حقوق الإنسان، أو دور من يقوم بالتوثيق أو بالمقاومة المباشرة. أنهم مثال رائع على ما يجب أن يكون عليه الإنسان فى ذلك المشوار الطويل. وأعرف أن الوضع يسبب لهم الأذى، وربما كسرهم تماما فى النهاية على كل المستويات، ومع ذلك فأنا مندهشة من تلك الصلابة فى الدفاع إلى أقصى حد عن إنسانيتهم، قدرتهم على أن يضحكوا وأن يكونوا كرماء وأن يمضوا أوقاتا عائلية بالرغم من الرعب الذى لا يمكن تصديقه فى حياتهم وفى مواجهة الوجود الدائم للموت. لقد شعرت بتحسن كبير بعد هذا الصباح. أمضيت وقتا طويلا فى الكتابة عن الشعور بالإحباط بسبب إكتشاف المرء بنفسه درجة الشر التى مازال الإنسان قادرا على ممارستها. ويجدر بى الإشارة على الأقل أننى أكتشف درجة الصلابة والقدرة الإنسانية الأصيلة للحفاظ على إنسانيتنا فى ظل أسوأ الظروف، والتى لم أر مثلها من قبل أيضا. أعتقد أن الكلمة التى يجب استخدامها هى الكرامة الإنسانية. أتمنى لو كان بإمكانك رؤية هؤلاء الناس. ولعلك تستطيعين يوما.

راشيل.

تابع الرسالة الرابعة فى ٢٨ فبراير ٢٠٠٣

أتصور أنه بالامكان أن أشهد فى حياتى قيام دولة فلسطينية أو دولة ديموقراطية

للإسرائيليين والفلسطينيين. وأعتقد أن تحرر فلسطين سيكون مصدر أمل كبير لكل الشعوب المناضلة فى العالم، وسيكون كذلك فى تصورى مصدر إلهام للشعوب العربية فى الشرق الأوسط والتى تناضل ضد أنظمة غير ديموقراطية تدعمها الولايات المتحدة.

إننى أتطلع لزيادة وعى من هم مثلنا، أنا وأنت، من أفراد الطبقة الوسطى الميسورين ليدركوا طبيعة الأنظمة التى أسست لهم ما يتمتعون به من امتيازات، وليبدأوا فى مساندة عمل أولئك المحرومين من تلك الامتيازات فى محاولتهم هدم هذه الأسس.

وأتطلع لمزيد من اللحظات الشبيهة بالخامس عشر من فبراير حين أفاق المجتمع المدنى كله وقدم دليلا قويا ومدويا على يقظة الضمير، وعدم الرغبة فى الخضوع للقهر، وعلى التعاطف مع معاناة الآخرين. وأتطلع لوجود مزيد من المدرسين من أمثال مات جرانت وباربرا ويفر وجيل كنوث الذين يعلمون الأطفال فى الولايات المتحدة التفكير النقدى. وأتطلع للمقاومة الدولية الموجودة الآن والتى أثرت التحليلات فى مختلف القضايا، وخلقت حوارا بين مجموعات متباينة من البشر. وأتطلع لنا جميعا نحن حديثى العهد إلى محاولة تنمية قدرات أفضل للتعامل فى أشكال ديموقراطية وعلاج أنفسنا من التمييز العنصرى والطبقى والجنسى، والتمييز ضد كبار السن والمعاقين، ثم محاولة أن يكون لنا تأثير أكبر.

شىء آخر أفكر فيه كثيرا فيما يتعلق بالاحتجاجات العامة مثل تلك التى نظمت منذ عدة أسابيع وحضرها ١٥٠ شخص فقط.. عندما أنظم أو أشارك فى احتجاج عام أقلق كثيرا من أنه سيكون فظيعا، سيكون العدد صغيرا، مخجلا، وسنكون أضحوكة بالنسبة للإعلام. فى عطلة نهاية الأسبوع التى تلت مظاهرة ال١٥٠ شخص تمت دعوتنا لمظاهرة اشتملت ربما على ٢٠٠٠. ورغم أن مظاهرتنا كانت صغيرة وبالطبع لم يكن هناك تغطية لها فى العالم، إلا أن كلمة "رفح" وجدت لها مكانا خارج الصحافة العربية. لقد أمد كولين المتظاهرين فى سياتل بلافتة بالإنجليزية والعربية تقول "أوليمبيا تقول لا للحرب على رفح وعلى العراق." وقد نشرت صوره فى الموقع الإلكترونى لرفح اليوم والذى يعده رجل هنا اسمه محمد. وقد رأى الناس هنا وفى أماكن أخرى هذه الصور.

وأفكر بجلن الذى كان يخرج كل جمعة طوال عشر سنوات بلافتات تحمل عدد الأطفال القتلى نتيجة العقوبات الاقتصادية على العراق. وأحيانا لا يكون معه سوى شخص واحد أو شخصين، وقد كان الجميع يعتقد أنهم مجانين بل وكانوا يبصقون عليهم. والآن هناك أعداد أكثر بكثير فى لقاءات الجمعة المسائية تلك.

أنها أعداد تملأ التقاطع ما بين شارع فورث وشارع ستيت، ويدق المارة لهم أبواق السيارات ويلوحون بإشارات التشجيع والتحية. لقد خلقوا أساسا مكن غيرهم من الناس من القيام بشىء ما. لقد بصق الناس عليهم ولكن ذلك قد فتح الطريق ليأتى شخص ويجد من السهل عليه أن يقوم بإرسال خطاب حول القضية إلى جريدة ما، أو أن يلتحق بالصفوف الخلفية لمظاهرة أو يقوم بأى شىء لا يبدو مضحكا وسخيفا مثلما بدا وقوف هذا العدد الضئيل على جانب الطريق حاملين أعداد الأطفال القتلى فى العراق ومعرضين أنفسهم لبصقات الآخرين.

ان مجرد سماعى عما تقومون به يخفف من شعورى بالوحدة وعدم جدوى ما أفعله وبأننى كالخيال غير المرئى. ان فى تلك الأبواق وإشارات التشجيع ما يعين على التحمل، وكذلك الصور وكذلك كولين. فلا الإعلام الدولى ولا حكومة بلادنا سوف تقول لنا إننا مؤثرون أو مهمون أو على حق فيما نقوم به من عمل ولن تصفنا بالشجعان أو أصحاب العقول والقيم. علينا أن نقوم بذلك لبعضنا البعض، وأحد الطرق للقيام بذلك هو أن نقوم بعملنا بحيث يراه الجميع.

كما أعتقد أنه من المهم بالنسبة للناس فى الولايات المتحدة بما عندهم من غنى أن يدركوا أن المحرومين سيقومون بهذا العمل أيا كان الأمر لأنهم يعملون فى سبيل حياتهم. فإما أن نعمل معهم ويعلمون أننا نعمل معهم أو أن نتركهم يقومون بالعمل بأنفسهم ويلعنوننا على تواطؤنا فى قتلهم. والحقيقة إننى لم أشعر هنا أن أحدا يلعننى. أشعر هنا كذلك أن الناس أكثر اهتماما فعلا براحتنا المباشرة وبصحتنا من اهتمامهم بأننا نعرض حياتنا للخطر من أجلهم. على الأقل هذا هو الوضع بالنسبة لى. فالناس تحاول أن تقدم لى الكثير من الشاى والطعام فى ظل طلقات النار وتفجيرات القنابل.

حبى لك،

راشيل

الرسالة الأخيرة

تحياتى يا أبى

أشكرك على رسالتك. أشعر أحيانا أننى أقضى كل الوقت فى إلقاء خطب الدعاية على أمى مفترضة إنها ستعطيك الرسائل لتقرأها، وبذلك أهملك أنت. لا تقلق على كثيرا، أن أكثر ما يشغلنى هو عدم قدرتنا على التأثير حتى الآن. ولا زلت لا أشعر بخطر كبير. تبدو رفح مكانا أكثر هدوءا مؤخرا، ربما لان الجيش مشغول بغاراته فى الشمال، ما زال إطلاق النار وهدم البيوت مستمرا، وقد قتل شخص واحد هذا الأسبوع فى حدود علمى، ولكن لا غارات واسعة. ولست أدرى كيف ستتغير الأمور إذا ما بدأت الحرب مع العراق ومتى.

أشكرك كذلك على تصعيد عملك فى مناهضة الحرب. أعرف أن ذلك ليس سهلا، وبالقطع هو عمل أصعب عندك مما هو حيث أنا الآن. أنا مهتمة فعلا بالحديث إلى الصحفى فى شارلوت أرجو أن تخبرنى بما علىّ عمله للإسراع بهذا الموضوع. أحاول أن أقرر ما سأفعله عندما أرحل من هنا، ومتى سأرحل من هنا. حتى الآن أعتقد أننى يمكن أن أبقى حتى يونيو، من الناحية المادية. وأنا لا أريد حقا العودة إلى أوليمبيا، ولكنى أحتاج لتصفية بعض أمورى والحديث عن تجاربى هنا. ومن الناحية الآخرى وحيث أننى قد عبرت المحيط الأطلنطى فإن بى رغبة قوية للبقاء فى هذه الجهة لبعض الوقت. أفكر فى محاولة إيجاد وظيفة لتدريس الإنجليزية، وأتمنى حقا أن أجتهد فى تعلم العربية.

كما إننى تلقيت دعوة لزيارة السويد فى طريق عودتى، ويمكننى القيام بذلك بسعر رخيص. وأود كذلك أن تكون عندى خطة واضحة للعودة حين أغادر رفح. واحدة من الأعضاء الأساسيين فى مجموعتنا ستغادر غدا، وقد أدركت وأنا أراقبها وهى تودع الناس كم سيكون ذلك صعبا. فالناس هنا لا يستطيعون المغادرة، وهو ما يعقد الأمر. وهم يتحدثون ببساطة عن عدم ثقتهم فى بقائهم على قيد الحياة عند عودتنا مرة أخرى.

أنا لا أريد أن أعيش بشعور عميق بالذنب تجاه هذا المكان، لأننى قادرة على الزيارة والمغادرة بكل سهولة، وقادرة كذلك على عدم العودة هنا مرة أخرى. أعتقد أن الارتباط بالمكان شيء ذو قيمة، ولذلك أود أن أستطيع التخطيط للعودة هنا فى خلال سنة تقريبا. ومن كل هذه الاحتمالات أعتقد أن الاحتمال الأقرب هو أننى على الأقل سأذهب للسويد لعدة أسابيع فى طريق عودتى. أستطيع تغيير تذكرة الطائرة من باريس إلى السويد والعودة بمبلغ ١٥٠ دولار تقريباً. أعرف أنه يجب أن أحاول اللحاق بالعائلة فى فرنسا، ولكننى أعتقد أننى لن أفعل ذلك. كما أن فى ذلك انتقاصا لكثير من الثراء فى اللحظة الحالية، وسيحمّلنى الكثير من الشعور بالذنب الطبقى طوال الوقت.

أخبرنى ماذا تفكر أنت بما على أن أفعله فى حياتى القادمة. أحبك كثيرا. تستطيع إن أردت أنت أنتكتب لى وكأننى فى إجازة فى مخيم على جزيرة كبيرة فى هاوى حيث أتعلم أشغال الإبرة. لأخفف على نفسى هنا أحيانا ما أنسحب تماما إلى عالم الأوهام: أتخيل نفسى فى فيلم من أفلام هوليود أو مسلسل تلفزيونى من بطولة مايكل فوكس. فلا تتردد فى تخيل أى شيء وسيسعدنى أن أشاركك اللعبة. حبى الكثير يا أبى.

راشيل.

رؤية

رؤية محمد مندور في السياسة والاقتصاد والاجتماع

قراءة فى خطاب مفكر طليعى

د. إيمان السعيد جلال

أستاذ اللغويات المساعد

كلية الألسن - جامعة عين شمس

تعددت إنجازات الدكتور محمد مندور (١٩٠٧ - ١٩٦٥) فى سنوات عطائه الممتدة عبر الأربعينيات والخمسينيات وحتى منتصف الستينيات، فمارس العمل الأكاديمى(١) والعمل الصحفى والمحاماة وعضوية البرلمان، مثلما جمع من قبل فى دراسته بين الأدب واللغة والقانون والسياسة والاقتصاد والاجتماع.

والسطور التالية توجه عنايتها إلى إنجاز محمد مندور الوطنى باعتباره رمزًا من رموز الكفاح السياسى ورائدًا من رواد الفكر الاقتصادى والاجتماعى، وعلمًا من أعلام كتّاب المقال السياسى فى فترة من أصخب وأخصب فترات الحركة الوطنية المصرية فى العصر الحديث.

النشأة والتكوين

دخل محمد مندور معترك الحياة السياسية فى فترة حرجة من تاريخ مصر الحديث، وهى الفترة الممتدة من نهايات الحرب العالمية الثانية، وحتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢. وقد مارس فى هذه السنوات العمل الصحفى والعمل السياسى من خلال حزب الوفد الذى بدأت صلته الفعلية به فى منتصف الأربعينيات.

وكان وعيه السياسى والوطنى قد تفتح مبكرًا جدًا؛ فقد تأثر بأحداث ثورة ١٩١٩ التى شهدها بعينى صبى فى الثانية عشرة، إذ إنه ولد فى ١٩٠٧/٧/٥ فى إحدى قرى مركز منيا القمح، لأسرة ريفية تجمع بين الوطنية والتدين، وعايش فى هذه القرية معاناة الفلاحين البسطاء الذين نشأ بينهم وتعلق بهم وبأرضه وبوطنه البائس.

ثم شهد بعينيه حادثة «بحر مويس» التى قتل فيها قرابة ١٥٠ من الفلاحين برصاص الجنود الإنجليز، وتساقطت جثثهم فى بحر مويس، وجرف التيار بعضًا منها إلى القناطر التسع بالزقازيق. وظل الفلاحون يذكرون هذه المجزرة، كما ظلت محفورة فى ذاكرة مندور حتى روى تفاصيلها لفؤاد دوارة فى كتاب «عشرة أدباء يتحدثون» قبيل وفاته بشهور قليلة(٢).

وبرز حسه الوطنى عاليًا فى شبابه المبكر عندما شارك فى إضراب، وقاد إحدى المظاهرات التى تزعمها الطلبة ضد الإنجليز وحكومة زيور التى خلفت حكومة سعد زغلول إثر مقتل السردار فى نوفمبر ١٩٢٤. وكان مندور حينئذٍ طالبًا فى البكالوريا، ففُصل من المدرسة، وحصل على الشهادة من المنزل.

وفى عام ١٩٢٥ التحق مندور بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليًا) وكانت نيته أن يلتحق بكلية الحقوق، وأن يصبح وكيلاً للنيابة، ولكن طه حسين أقنعه أن يلتحق بكلية الآداب أيضًا، فجمع بين الدراستين، وحصل على ليسانس الآداب فى اللغة العربية سنة ١٩٢٩، وعلى ليسانس الحقوق فى عام ١٩٣٠، وهو العام نفسه الذى ابتعث فيه إلى فرنسا للالتحاق بالسربون، للحصول على ليسانس الآداب واللغات اليونانية القديمة واللاتينية والفرنسية وفقهها المقارن، ثم لتحضير الدكتوراه فى الأدب العربى.

وقد حصل بالفعل على ليسانس الآداب، لكنه لم ينصرف بعد ذلك إلى تحضير الدكتوراه، بل شغلته دراسة القانون والاقتصاد والسياسة، مثلما كانت دراسة القانون هى هدفه الأول عند الالتحاق بالجامعة، فحصل على دبلوم فى القانون والاقتصاد السياسى والتشريع المالى، ودرس مذاهب الاقتصاد وفلسفته، والنظم الضريبية والتشريع المالى؛ وحضر محاضرات فى الفلسفة والتاريخ والاجتماع وعلم النفس، وعاد إلى مصر سنة ١٩٣٩ دون دكتوراه(٣).

إن أمر هذا التكوين العلمى لافت للنظر، فمحمد مندور الذى يعد - بحق - شيخ النقاد

العرب فى العصر الحديث لم يُعِدّ نفسه مطلقًا لكى يكون ناقدًا، بل اتجه إلى دراسة القانون.. ثم لم يجد بأسًا فى أن يدرس معه الأدب العربى.. ثم إنه فى فرنسا يكتفى بالليسانس ويولى وجهه شطر دراسة القانون والاقتصاد والاجتماع، وكأنما كان يعد نفسه لكى يكون كاتبًا سياسيًا مرموقًا!

النضال الوطنى

ويبدو أن مندور توقف عن كل نشاط سياسى، حتى ولو كان قلميًا منذ حادثة فصله من المدرسة حتى عام ١٩٣٦، فإنه لم يُشر إلى شيء من هذا فى سيرته التى رواها لفؤاد دوارة، ويبدو أن هذه السنوات كانت تمثل مرحلة تكوين اكتفى فيها بتلقى العلم والثقافة، ومتابعة ما يجرى من أحداث فى بلاده وفى العالم. حتى كان عام ١٩٣٦ - فى أثناء بعثته - عندما نشر مقالات سياسية فى الصحف الفرنسية، شرح فيها للرأى العام الفرنسى مسألة الامتيازات الأجنبية التى كانت الحكومة المصرية تتفاوض لإلغائها، وإلغاء المحاكم المختلطة، ونبّه الفرنسيين إلى أن معارضة حكومتهم لهذه الرغبة الوطنية المصرية ستجعل الفرنسيين يخسرون وضعهم المتميز فى مصر. وردّ عليه وكيل الخارجية الفرنسية، وكان رئيس وفد بلاده فى مفاوضات مونترو، وساجله مندور، الذى روى أنه استطاع أن يقنع الرأى العام الفرنسى بوجهة النظر المصرية. وكان ما كتبه مندور يعبر عن توجه حزب الوفد، ويقوّى موقفه فى مفاوضات مونترو، فتقبل ما كتبه مندور بقبول حسن.

عاد محمد مندور من فرنسا، بدون دكتوراه، فتعقدت علاقته بأساتذته، بخاصة طه حسين، واصطدم بكثير منهم، وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ، حتى بعد انتقاله إلى جامعة الإسكندرية سنة ١٩٤٢، وحصوله على الدكتوراه سنة ١٩٤٣، وانتهى الأمر إلى استقالته من الجامعة فى إبريل ١٩٤٤. وكان مدير جامعة الإسكندرية الدكتور طه حسين قد رفض ترقيته بعد حصوله على الدكتوراه(٤).

ووجد مندور فى استقالته من الجامعة فرصة ليتفرغ للعمل الصحفى، فى هذه الفترة من تاريخ مصر، فقد أدرك أنها فترة حاسمة فى تاريخ الوطنية المصرية، بعد ما يزيد على ستين عامًا من الاحتلال، وبعد تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية واتساع فجوة التفاوت الطبقى فى أعقاب الحرب.. وقد كتب فى مقال له عنوانه «من أعماق السجن» يقول: «وعدت (أى: من أوربا) مشتعل القلب، فحرصت على أن أضع جهودى المتواضعة فى خدمة هذا الوطن، وأنا أتحرّق إلى أن أراه وطنًا كبيرًا قويًا حرًا، وهذا هو ما دفعنى إلى ترك العمل بالجامعة لأجاهد فى الحياة العامة»(٥).

كان المشهد الثقافى فى مصر - عند عودته من فرنسا - يضم السلفيين التقليديين فى السياسة، وفى الأدب أيضًا، كما كان يضم جيل الليبراليين الذين تلمذ لهم مندور من أمثال

لطفى السيد وطه حسين وغيرهما، وكلا الفريقين كانت أفكاره تحتاج إلى مناقشة، وكانت الصحافة هى الميدان الملائم لطرح أفكاره فى السياسة والأدب.

كتب دكتور جابر عصفور، موضحًا طبيعة هذه المواجهة بين الجيلين: «أصبحت الحاجة ماسة لمواجهة بقايا القديم فى صوره الإحيائية والسلفية، ومواجهة الجديد فى صوره الليبرالية، وما يصاحبها من نزوع بالغ إلى الفردية، وزاد من ضرورة هذه المواجهة ما ظهر فى الفلسفة الفردية التى تبناها الرواد من قصور متزايد، سواء فى الفكر السياسى، أو فى الفكر الأدبى. وكان على الجيل الجديد – جيل مندور – مواجهة هذا القصور وتجاوزه، والتحول من صيغة الفردية الليبرالية إلى صيغ متعددة تحاول مجاوزة أزمة المجتمع المصرى التى تزايدت فى أواخر الثلاثينيات وما أعقبها»(٦).

لقد أصبح لزامًا على الطليعة من الجيل الجديد أن يبشروا بصيغ جديدة قادرة على مواجهة ما عجز عنه الليبراليون مثل قضية الصراع الطبقى باعتبارها جوهر الأزمة فى المجتمع المصرى منذ نشوب الحرب العالمية الثانية «وكان على الجيل الجديد الذى بدأت جهوده تقريبًا مع نشوب الحرب العالمية الثانية أن يطرح صيغًا متعددة، أخذ بعضها شكل الديمقراطية الاجتماعية التى تبناها مندور ودعا إليها، أو شكل الاشتراكية الديمقراطية عند لويس عوض»(٧).

محمد مندور وحزب الوفد

فى أعقاب استقالته من الجامعة تحولت علاقة مندور بحزب الوفد من مجرد التأييد والمساندة، التى تبدت فى مقالاته بالصحافة الفرنسية سنة ١٩٣٦ – إلى مشاركة فعلية فى الحزب وصحفه، عندما أسند إليه محمود أبو الفتح، صاحب جريدة «المصرى» – لسان الوفد – العمل رئيسًا لتحريرها سنة ١٩٤٤. لكن الأمر لم يستمر سوى ثلاثة شهور، اختلف بعدها مع «أبوالفتح» وترك العمل بالصحيفة. وسرعان ما عُهد إليه بإدارة تحرير صحيفة «الوفد المصرى» فى ١١ فبراير ١٩٤٥، ثم برئاسة تحريرها فى ٢١ يونيو من العام نفسه.

علل مندور عمله من خلال حزب الوفد – تحديدًا – وصحفه، على الرغم مع اختلافه أيديولوجيًا مع قيادات الحزب اليمينية التقليدية، بأنه كان محاولة لتعزيز اتصاله بالرأى العام من خلال حزب الأغلبية.. يقول: «لم أجد ميدانًا أستطيع أن أجمع فيه بين العمل السياسى والعمل الأدبى كناقد متخصص إلا فى الصحافة، حيث رأست تحرير جرائد المصرى، ثم الوفد المصرى، ثم صوت الأمة، كما أصدرت لحسابى الخاص مجلة البعث، وقد أحسست عندئذٍ أن أقرب الأحزاب السياسية القائمة من الشعب هو حزب الوفد المصرى، وخيّل إلىّ أننى أستطيع تطوير هذا الحزب من داخله بكتاباتى الثورية فى جماهير الشعب العريضة، وذلك مع تدعيم المشاعر الوطنية بقيم فكرية، تستطيع أن تصمد مع

الزمن، ولا تنطفئ وشيكًا كما تنطفئ الثورات العاطفية»(٨).

الكاتب السياسى الأول فى صحف الوفد

وبالتحاقه بجريدة «الوفد المصرى» - أكبر الصحف الوفدية - مديرًا للتحرير، فرئيسًا للتحرير أصبح مندور الكاتب السياسى الأول بها. وكان هذا المنصب يفرض عليه أن يكتب مقالاً - أو أكثر - فى كل عدد من أعداد هذه الجريدة اليومية، فكان يوقع المقال الافتتاحى باسمه، ويوقع غيره من المقالات برمز الحرفين الأولين من اسمه (م.م.) أو بالحرف الأول فقط (م.).

وبعد شهور قليلة من رئاسته لتحرير «الوفد المصرى» التحق بها الدكتور عزيز فهمى(٩)، بوصفه كاتبًا سياسيًا كبيرًا، فشارك مندور هذه المكانة، وكانا يتبادلان كتابة المقال الرئيس على الجانب العلوى الأيمن من الصفحة الأولى يوميًا، أو على عمود مزدوج يسار الصفحة الثانية بالتبادل أيضًا.

وقد أتاحت له هذه الكتابة المكثفة أن يبسط أفكاره، وأن يتابع الأحداث الجارية يوميًا، وأن يلح على الأفكار التى يريد أن يرسخها، وأن يتدرج فى تناول الموضوعات، وينمو بها بصورة لم تتح لغيره من كتّاب الصحف الأسبوعية.

قدم مندور بجانب مقالاته فى السياسة والاقتصاد والاجتماع سلسلة من الموضوعات الصحفية، جعل عنوانها «براويز» اعتمد فى مادتها على تقرير سنوى تصدره الجاليات الأجنبية فى مصر بالفرنسية بعنوان «حولية الشركات» يتضمن ملخصًا لميزانيات الشركات، والمرتبات التى يتقاضاها أعضاء مجالس الإدارات فى الشركات المختلفة، وكان مجموع ما يتقاضاه بعضهم يتجاوز مائة ألف جنيه سنويًا، من مجموعة شركات. وكانت الجريدة تنشر يوميًا اسم واحد من هؤلاء الباشوات، وقائمة بعدد الشركات التى يعمل عضوًا بمجلس إدارتها، وأمام كل شركة مقدار مكافآته منها.. ثم مجموع هذه المكافآت.. وتكتفى الجريدة بالتساؤل حول إمكانية أن يخدم هذا الباشا كل هذه الشركات، بما يجعله مستحقًا لكل هذه المكافآت(١٠).

وبذلك استطاع مندور أن يعيد الحياة إلى تلك الجريدة التى قال عنها إنها كانت مسائية ميتة(١١). غير أنه أغضب باشوات حزب الوفد الذين يمثلون الزعامات التقليدية، وكانوا فى معظمهم من العناصر الرأسمالية الإقطاعية التى انضمت للوفد سنة ١٩٣٦ دون الاعتبار بماضى جهادهم، مما أثر فى تكوين الحزب وتوجهاته. غضب هؤلاء الباشوات على الرغم من أن مندور ابتعد عن النيل منهم فى هذه «البراويز» سالفة الذكر، وكتب يقول: «وما لبثت هذه الجريدة أن أصبحت مركزًا لحركة تقدمية داخل حزب الوفد نفسه، رغم معارضة باشواته، فقد حولتها إلى ما يشبه المنشور اليومى الثورى، ووصلت فيها بالمعارضة

السياسية الصلبة إلى أبعد الحدود وجعلت منها سوط عذاب على الإنجليز والسرائى وأذنابها من الأقليات التى لم يكن لها همّ سوى التربص للحكم ومغانمه»(١٢).

محمد مندور والطليعة الوفدية

بدأ مندور بانضمامه للوفد يؤدى دورًا مهمًا فى دفع القضية الوطنية، مع ربطها ربطًا وثيقًا بالمشكلة الاجتماعية، واضطراب بنية المجتمع المصرى، وكانت قيادات الوفد التقليدية قد شاخت وأصابها الجمود والفتور، وبدأت آراء مندور التقدمية تثير قلق هذه القيادات التى تنتمى إلى العناصر الإقطاعية وكبار الملاك، وقد جعل شعار «العدالة الاجتماعية» أحد أهداف الوفد الثلاثة التى تتصدر الصفحة الأولى من الصحيفة: «استقلال وادى النيل – الديمقراطية السياسية – العدالة الاجتماعية» فسوّى بذلك بين أهمية تحقيق الاستقلال للوطن، وأهمية إحراز العدالة الاجتماعية لمواطنيه.

لم يكن هذا الصوت الجديد هو صوت مندور وحده، بل هو صوت تيار جديد فى صفوف الوفد، يضم طليعة الشباب التقدمى المؤمن بالعدالة الاجتماعية. وقد عمل هذا التيار تحت اسم «الطليعة الوفدية» فيما بين عامى ١٩٤٥، ١٩٤٧، حتى ظهر فى صورة تنظيم تابع لحزب الوفد فى مارس ١٩٤٧. وكان لهذا التيار إدراك خاص للقضية الوطنية من خلال فهمه لظروف السياسة الدولية الناتجة عن قيام الأمم المتحدة، وكيف يمكن لمصر أن تفيد منها، ودعا إلى الحياد، وأدرك الصلة بين الاستعمار والرجعية المحلية.

وقد ارتبط هذا التيار بتقاليد الوفد فى الدفاع عن الاستقلال والحريات ودعم الحياة النيابية، مع النزوع التقدمى، والإيمان بمبادئ العدالة الاجتماعية.

وكان مندور هو أبرز أعضاء هذا التنظيم الطليعى الخارج من عباءة الوفد، وقد جلب عليه هذا التوجه الاجتماعى كثيرًا من المشكلات.. يقول: «أحسست بحركة تذمر ضدى بين الجناح الإقطاعى اليمينى فى الحزب، فى الوقت الذى أصبحت فيه الجريدة مكان تجمع لما عُرف وقتئذٍ بالطليعة الوفدية، والشباب الوفدى التقدمى الذى يبدو أنه كان يضم عددًا من الشيوعيين. ولكننى على أية حال لم يكن لى فى يوم من الأيام اتصال بالحزب الشيوعى ومنظماته.. وإذا كنت وضعت بين شعارات جريدة الوفد المصرى التى كانت تنشر تحت عنوانها كل يوم شعار العدالة الاجتماعية، فقد كنت مدفوعًا فى ذلك بنزعة إصلاحية خالصة كانت تدعونى إلى مناصرة العدل بين المواطنين، وتقريب المسافة بين الثراء الفاحش والفقر المدقع الذى كانت تتردى فيه الملايين»(١٣).

اتهام بالشيوعية!

كان هذا التوجه الاجتماعى سببًا فى اتهام مندور بالشيوعية، والزج به فى السجن فى

حملة إسماعيل صدقى التى استهدفت طليعة المثقفين فى يوليو ١٩٤٦، والتى صادر فيها اثنتى عشرة صحيفة مصرية من بينها «الوفد المصرى» التى عطلت نهائيًا.

لقد نفى مندور عن نفسه أىّ صلة بينه وبين الحزب الشيوعى، وأكد أنها مجرد نزعة إصلاحية ومناصرة للعدل بين المواطنين، وقد تحدث فيما بعد عن هذا «الاتهام» بالشيوعية، وقال إنه كان اتهامًا «رخيصًا».. يقول: «لقد طال أنين الشعب المصرى من سوء أحواله، ولقد طالبنا بإصلاح هذه الأحوال، حتى بلغ الأمر ببعض الخصوم المغرضين غير الشرفاء أن حاولوا النيل منا بالدس والاتهام بالشيوعية، وهو اتهام رخيص، لا يمكن أن يحول بيننا وبين ما نؤمن به من حب للإنصاف والعدل، ومن رفق بهذا الشعب الذى نشأنا بين أحضانه فى الريف، ولمسنا ما يشكو منه من آفات مزمنة، لعل الفقر بؤرتها الأساسية»(١٤).

كان مندور إذًا أحد أبرز الدعاة إلى الإصلاح الاجتماعى، وقد حاول أن يتوسط بين أقصى اليمين وأقصى اليسار.. يقول دكتور جابر عصفور: «إذا نظرنا إلى الفكر الليبرالى فى هذه المرحلة على أنه نقيض الماركسية، نجد أن محمد مندور ظل يحاول التوسط بين النقيضين منذ آخر الثلاثينيات وطوال الأربعينيات، ويدعو إلى توازن الطبقات الاجتماعية عن طريق ما أسماه مذهب الديمقراطية الاجتماعية التى هى نوع من الراديكالية تواجه الحرية الفردية المطلقة، وتدعو إلى تدخل الدولة للحد من الرأسمالية المطلقة والعمالية المطلقة، فتوسط بذلك بين النقيضين، وتوازن بين الطبقات موازنة إصلاحية، والهدف إعادة بناء المجتمع المصرى على أساس جديد، يأخذ من الديمقراطية الليبرالية مفهوم الحرية، ويأخذ من الاشتراكية العلمية مفهوم السيطرة على وسائل الإنتاج، فذلك هو السبيل إلى تحقيق العدالة الاجتماعية التى كانت حلمًا يؤرق الإصلاحيين من جيل مندور»(١٥).

صودرت صحيفة «الوفد المصرى» إذًا، وعطلت نهائيًا، كما صودرت مجلة «البعث»، وهى مجلة أسبوعية أصدرها مندور فى ١٩٤٥/١٢/١٣ لحسابه الخاص، وشكل هيئة تحريرها من الشباب التقدمى، وعاونه الكاتب الكبير دكتور محمود عزمى بمقالاته الأسبوعية «فى السياسة الدولية». وتمثل «البعث» حلقة من حلقات كفاح مندور الصحفى، وقد كتب عن هذا الكفاح رغم تواضع الإمكانات: «كنت بعد أن أجمع موادها، أحملها بنفسى إلى مطبعة «الرغائب» فى شارع محمد على، حيث أسهر الليل كله حتى تجمع المقالات، وأصححها ثم تطبع المجلة، وأسلمها بنفسى للباعة والمتعهدين، ثم أمرّ بعد ذلك فى شوارع القاهرة أفتش على التوزيع.. كل ذلك دون أن أنال أى قسط من النوم أو الراحة»(١٦).

لم يغب قلم مندور عن صفحات جريدة «الوفد المصرى» وهو سجين أيضًا، حتى صودرت نهائياً فى ١٩٤٦/٧/١١، فكان يوافيها بمقالاته من داخل السجن حيث مكنه ضباط الشرطة الوطنيون من كتابة مقالاته، وحملوها إلى الصحيفة لتنشر فى موعدها، وتعرضوا بذلك

لأذى كثير.

من هذه المقالات التى نشرها عقب اعتقاله فى ١٩٤٥/٧/١٩ مقال: «بين أمس واليوم» فى ١٩٤٥/٧/٢٣ ومقال «من أعماق السجن» فى ١٩٤٥/٧/٢٦.

قضى محمد مندور فى السجن ستة وأربعين يومًا رهن التحقيق، فى حملة إسماعيل صدقى على طليعة المثقفين فى ١٩٤٦/٧/١١، وخرج ليجد أن قيادات الوفد اليمينية قد تخلت عنه، إذ تعهدت لإسماعيل صدقى بعدم إسناد رئاسة تحرير الجريدة الوفدية الجديدة إلى مندور فى مقابل أن يمنح صدقى الوفد رخصة جريدة جديدة هى «صوت الأمة». غير أن القدر أحبط هذا الاتفاق، لأن حكومة صدقى أسقطت فى سبتمبر ١٩٤٦، وبذلك تولى مندور رئاسة تحرير «صوت الأمة» تلقائيًا(١٧) وظل رئيسًا للتحرير تتوالى مقالاته من ٣٠ سبتمبر ١٩٤٦ حتى أكتوبر ١٩٤٨.

●●●

نجح محمد مندور – مثلما نجح الكتّاب الوطنيون المناضلون بالكلمة على صفحات الصحف الوطنية المصرية – فى أن يفتح بابًا لانطلاق حركة الجيش التى أيدها المصريون جميعًا، وإذا كان محمد مندور لم يدعُ صراحة إلى الثورة، فقد استنفر مشاعر القراء، وأثار مواطنيه ضد المعتدين على حقوقهم، احتلالاً كان أو سراى أو إقطاعيين، وكان ذلك خطوة مهمة فى سبيل اختمار الفكر الثورى.

لقد أدى محمد مندور دورًا خالدًا عن اقتناع ودون أطماع فى مجد شخصى، وبشجاعة جلبت له كثيرًا من المتاعب، ودفع ثمنها من استقراره وحريته وصحته وأمن أسرته، فقد ذهب إلى الحبس الاحتياطى ما يزيد على عشرين مرة بين عامى (١٩٤٥، ١٩٤٦) وهما العامان اللذان رأس فيهما تحرير «الوفد المصرى»، واعتقل ستة وأربعين يومًا فى حملة إسماعيل صدقى على المثقفين، ورفض رشوته له بالعمل سفيرًا لمصر فى سويسرا، مقابل أن يوقف مندور حملته الضارية على معاهدة صدقى – بيفن، وكان رد مندور على هذا العرض أنه يفضل الانتحار على خيانة الوطن(١٨).

لم يجن مندور من عمله بالصحافة والسياسة غير مجد الوطن.. وقد عمل فى هذه الأثناء (٤٨ – ١٩٥٤) بالمحاماة ليضمن دخلاً لأسرته، أما عضويته بمجلس النواب عن دائرة السكاكينى، فى أثناء الوزارة الوفدية الأخيرة، سنة ١٩٥٠ فقد عمل من خلالها رئيسًا للجنة التعليم وعضوًا باللجنة المالية، ومقررًا لميزانية وزارة المعارف.

كتب مندور فى مقال «من أعماق السجن» يقول: «أما ما لم يكن يدور بخلدى فهو أن يزج بى فى السجن نتيجة لهذه الفتنة الداخلية المخزية، وإن كانت روحى التى تعشق الحرية قد كانت دائمًا على أتم أهبة لأن أعذب واضطهد وأسجن وأنفى فى سبيل الوطن، كما فعل

الجيل الذى سبقنا إلى هذا المجد. أما وقد سارت الأمور إلى ما وصلنا إليه فأهلاً وسهلاً.
أيتها الحرية المقدسة: ما أحلاك فى النفس! حتى العذاب يهون من أجلك».
وعندما قيم مندور - قبيل وفاته بشهور معدودة - تجربته السياسية قبل الثورة. قال: «بالرغم من أن كفاحى داخل الوفد لم يكلل بالانتصار؛ لسيطرة الرجعيين الإقطاعيين والرأسماليين على هذا الحزب الشعبى الكبير، إلا أننى غير نادم على خوض تلك المعركة، وأعتبر أننى لم أفقدها، بل استطعت من خلالها أن أحقق مكاسب سياسية واجتماعية ثورية، لها أهميتها فى المد الثورى الذى أخذ يزداد حتى تحقق النصر النهائى بفضل ضباطنا الأحرار فى سنة ١٩٥٢»(١٩).

مقالات فى السياسة والاقتصاد والاجتماع

غذى محمد مندور الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بعدد ضخم من المقالات الصحفية، وكان لثقافته القانونية والاقتصادية والاجتماعية أثر كبير فى معالجة قضايا الوطن من زاوية السياسة الداخلية تارة، وعلاقتها بالسياسة الدولية تارة أخرى.
ففيما يتصل بالسياسة تناول: الجلاء والحياد، ورفض مبدأ الأحلاف العسكرية والدفاع المشترك، ودعا إلى تحرير البلاد العربية جميعًا، وإلى حيادها، كما دعا إلى إقامة نظام الدفاع العربى المشترك، وشغل بقضية وحدة وادى النيل (مصر والسودان)، ودافع عن الحق العربى فى فلسطين، ودعا إلى استقامة الحياة النيابية وإلى الديمقراطية السياسية.
أما القضايا الاقتصادية التى تنعكس بصورة مباشرة على الحياة الاجتماعية فقد عالج فى الأساس قضية الاستقلال الاقتصادى بوصفه استكمالاً للاستقلال الوطنى، ورفض سياسة القروض، ودعا إلى الضرائب التصاعدية التى تضمن العدالة بين الممولين، ودعا إلى تحديد الملكية الزراعية، وإلى تأميم المرافق العامة (مياه - كهرباء - مواصلات) وسيطرة الدولة عليها، وطالب بوضع قانون للشركات يضمن عدم استغلال النفوذ، ودعا إلى إقامة القضاء الإدارى ومجلس الدولة لإنصاف المواطنين من تعسف بعض الجهات الحكومية، ودعا إلى وضع حد أدنى لأجور العمال والفلاحين، وإلى إقامة نظام للتأمينات الاجتماعية لهم، والتأمين ضد المرض والشيخوخة والبطالة، ودعا إلى مجانية التعليم فى كل مراحله.
كان كثير من هذه الدعوات ملهمًا لرجال الثورة فيما بعد، وهذا ما يجعلنا نؤكد أن محمد مندور كان واحدًا من أبرز الكتّاب الذين مهدوا لثورة يوليو ١٩٥٢.
وفيما يلى استعراض لنماذج من القضايا التى عالجها فى مقالاته الصحفية:

أولا: القضايا السياسية:

(١) الهجوم على حكومات الأقلية

هاجم مندور حكومات الأقلية فى الغالب لأسباب ثلاثة: أولها أنها غير دستورية ولا تمثل

الأمة، وثانيها أنها لا تنهض بقضية الوطن العليا وهى الجلاء التام، وثالثها أنها تعتدى على حريات المواطنين الذين يطالبون بحقوق الوطن.

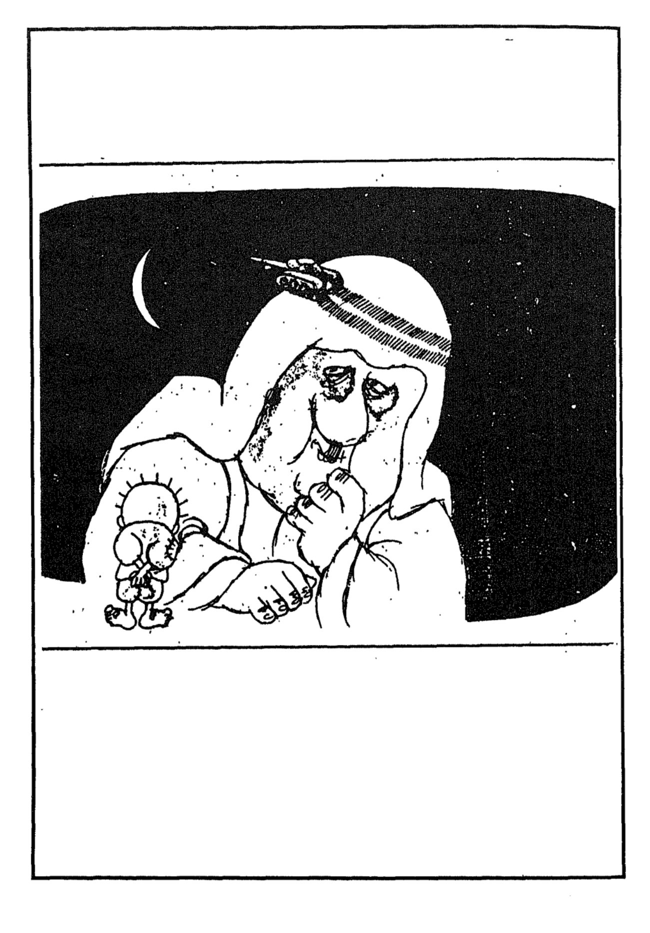
أولا: استند محمد مندور فى هجومه على حكومات الأقلية (محمود فهمى النقراشى، ومن بعده إسماعيل صدقى، ثم النقراشى مرة أخرى) إلى مبدأ أنه ينبغى أن يتولى الحكم وزارات يرضى عنها الشعب ويختارها بكامل إرادته، فتكون ممثلة شرعية له، بخاصة عند التفاوض باسم الأمة فى المفاوضات الثنائية، أو الحديث باسمها فى المحافل الدولية.

كتب فى مقال له عنوانه: «علاج الموقف»(٢٠) بعد أن قضت حكومة النقراشى تسعة أشهر (٢١) مبينا أسباب الضعف ومحددًا العلاج.. فبدأ بتكوين الحكومة.. يقول:«تقضى التقاليد الدستورية الصحيحة بأن تتكون كل حكومة إما من الحزب صاحب الأغلبية فى البرلمان، وإما من أحزاب مؤتلفة، إذا لم تكن هناك أغلبية واضحة لحزب من الأحزاب، وفى هذه الحالة تكون النسب بين عدد الوزراء من كل حزب مساوية لعدد أنصاره فى البرلمان. ومع ذلك ننظر اليوم فنرى الأحزاب الثلاثة السعدى والدستورى والكتلى لكلٍ منهم عدد من الوزراء مساوٍ للآخر، مع أن للسعديين ما يزيد على مائة نائب وللدستوريين ما يقرب من السبعين، وأماً الكتلة فليس لها إلا أقل من ثلاثين. وهذا أول شذوذ».

أما الشذوذ الآخر فيتعلق بعدم التجانس بين هؤلاء الأعضاء فى الحكومة الائتلافية «ويا ليت الأمر قد اقتصر على الشذوذ فى نسبة عدد الوزراء، وكان بينهم شىء من التجانس أو النظام أو القيادة الموحدة. فالوزارة مكونة الآن من رجال، يعرف الخاص والعام مبلغ ما كان ولا يزال بينهم من خصومات وتنافس وأنواع من الكبرياء الظاهر والمكتوم، ورئيس الوزراء لا يملك من النفوذ على أعضائها ما يستطيع أن يرد جماحهم، ويؤلف بين مجهودهم.. وهذا هو الشذوذ الثانى».

أما الشذوذ الثالث فيترتب على الأمرين السابقين، ويتصل بعقم إنتاج هذه الحكومة غير المتجانسة، ويحدد مندور أسباب هذا العقم بقوله: «أولاً كثرة الخلافات بين الوزراء..، ثانيًا انصراف الحكومة إلى الانتقام بدلاً من العمل لمصلحة البلاد، وإلى الهدم بدلاً من البناء» ويذكر تحت السبب الثانى الصراع الحزبى بين الحكومة المؤلفة من أحزاب الأقلية، وبين حزب الأغلبية (الوفد) وهو خارج الحكم.. وهذا يؤدى إلى الانصراف عن العمل الإيجابى لخدمة البلاد داخليًا وخارجيًا، وذلك هو الشذوذ الثالث.

ثم يصل إلى ما يترتب على عدم تجانس الوزراء وعقم الإنتاج، وهو ضعف الحكومة فيقول عنه: «كانت لذلك أسوأ النتائج على حريات البلاد الخارجية والداخلية على السواء، ففى الخارج لم تستطع إلى اليوم أن تفتح باب المفاوضة، بل ولا أن تحصل على وعد بالمفاوضة مع إنجلترا فى المسائل الخطيرة... وفى مجال الحريات جاهد مجلس الشيوخ ما جاهد ليفك قيود الأحكام العرفية فلم يستطع أن يصل مع الحكومة إلا إلى شىء ضئيل لا ضمان



فيه، وهو قرار من مجلس الوزراء بإطلاق حرية الصحافة وحرية الإبداع والحرية الشخصية». وهذا هو الشذوذ الرابع.

لقد حدد مندور فى مقاله فساد الوضع القائم وشذوذه منتقلاً من مشكلة إلى المشكلة التى تليها وتترتب عليها، ثم ينتهى إلى رأيه فى علاج الموقف الذى مهد له بكل هذه المقدمات:

«والآن ما هو العلاج الذى لم يعد منه بد لإصلاح كل هذه المظاهر الشاذة؟ العلاج واضح، وهو يتلخص فى وجوب استقالة هذه الحكومة لأنها فى الحق غير صالحة للبقاء ولا قادرة عليه، بعد تجربة التسعة أشهر العجاف الماضية».

ثانيًا: هاجم مندور حكومتى النقراشى إسماعيل صدقى لتعديهما على من يطالب من الشعب بحقوق الوطن. فهاجم حكومة النقراشى هجومًا عنيفًا عقب حادثة كوبرى عباس التى وقعت فى ١٩٤٦/٢/٩ مظاهرة قادها طلبة جامعة فؤاد الأول، مطالبين الحكومة بإلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى السودان، بعد أن أعلنت بريطانيا تمسكها بمعاهدة ١٩٣٦.

ووصف مندور عدوان الحكومة على هؤلاء الطلبة بأنه «همجية» فى مقال يحمل هذا العنوان نفسه(٢٢) ووصف للقراء ما شاهده من حوادث عنف بشعة، فقال: «فى الساعة الحادية عشرة من صباح أمس دق التليفون يخبرنا أن البوليس المصرى قد أشبع الشباب المصرى ضربًا مبرحًا، ترك المئات منهم صرعى على الأرض التى خضبت بدمائهم، فنفر إحساسى، وغلى دمى، واقشعرّ بدنى، وأسرعت إلى عربة، لأرى بعينى رأسى ما سمعت. وها أنا لا أستطيع أن أصف ما رأيت بغير الهمجية المثيرة المرذولة».. «لقد طفت ببندر الجيزة، ومنزل برادة بك، وقسم مصر القديمة، فرأيت ما يحزن ويخزى على السواء. فى بندر الجيزة رأيت عربتين محملتين بآثار المعركة، وهى لسوء الحظ كتب وكراسات الطلبة التى مزقت، وسارع البوليس إلى جمعها بعد أن تم له النصر!

وفى صالة السجن رأيت عشرات من الشبان، طلبة وغير طلبة، مبللين بدمائهم، منهم من يئن، ومنهم من يعجز عن الأنين، هذا وضع يده على رأسه الذى ينفجر منه الدماء، وذاك انحنى على ضلع من أضلعه التى أصابها كدم أو كسر، وثالث تصطك أسنانه من الألم، ورابع قد تقلص وجهه، فحرّك فى النفس الألم الثائر».

«وتساءلت بعد كل هذا: أية حكومة تلك التى تلجأ إلى مثل هذه الهمجية فى قمع شباب يسيرون فى مظاهرة سلمية، ولا سلاح بأيديهم غير الكتب والكراسات، ولا غاية لهم غير إظهار شعورهم الوطنى نحو قضية بلادهم المعلقة اليوم فى يد الأقدار.

عجيب أمر هذه الحكومة، تتخبط فى سياستها وتضعف فى المطالبة بحقوق الوطن، ثم تنكل بأبناء الأمة لأنهم يرفضون هذه السياسة، ولا يقرون هذا الضعف، ويطالبون فى حرارة وإيمان بأن يجلو المحتل عن بلادنا ويرد إلى وادى النيل حقوقه».

ونتيجة للهجوم على حكومة النقراشى أسقطت فى ١٩٤٦/٢/١٥، وخلفتها حكومة

إسماعيل صدقى، لكن مندور هاجمها لأنها كانت حكومة قمع الحماس الشعبى - منذ اللحظة الأولى. والسبب المباشر وراء عداء مندور لهذه الحكومة أنها بدأت عهدها بالاعتداء على الوطنيين المسالمين الذين يعبرون عن غضبهم فى مظاهرات سلمية، فجرحت وطنيتهم عندما اتهمت المتظاهرين من العمال والطلبة بأنهم «دهماء»، فكتب تحت عنوان «الجناة يحتجون»(٢٣). يقول: «الشىء المحزن هو أن تتخاذل الحكومة المصرية، بل وتأثم فى حق الوطن، فتترك الصحف الإنجليزية تهاجمنا، وتفترى علينا، بينما تصادر صحفنا نحن لأنها تؤدى أقل ما يجب عليها نحو الوطن والمواطنين.. وياليتها إذ صادرت الصحف المصرية، وتركت الصحف الاستعمارية قد استقلت بعبء الدفاع عنا، كما دافعت السلطات البريطانية بالباطل عن جنودها الهمج المستهترين، بل يا ليتها استحت فلم تحمل هى أيضًا على الشعب المصرى الأبىّ، ولم تتهمه بأنه من الدهماء، وبأن أيدٍ خفية تحركه، ولم تنذره بسوء العذاب إذا هو استمر على الغضب لمطالب وطنه التى طال عليها الزمن، وحان الحين لتحقيقها».

ووجه حديثه إلى إسماعيل صدقى: «أى أيدٍ أيها الرجل تريد أن تدفع المصريين إلى المطالبة بحريتهم المسلوبة، واستقلالهم المستعبد؟ ثم إلى أى دهماء تشير أيها الوزير، وتدعى أنهم قد اندسوا فى صفوف الطلبة؟ هل تظن أن الوطن لا تحرك بلواه غير الطلبة؟ هل تنكر على الدهماء حقها فى أن تحب وطنها، وأن تجاهد فى سبيله؟».(٢٤)

ثالثًا: الهجوم على حكومات الأقلية التى لا تنهض بقضايا الوطن:

عندما عاد النقراشى إلى السلطة، وواصل سياسة الصمت، عاد مندور ليكتب عن هذه السياسة التى تهدر مصالح الوطن.. كتب تحت عنوان:«غموض وعجز»(٢٥) يقول: «إن البلاد فى حاجة إلى حكومة شجاعة قوية واضحة السياسة، فتعلن فى عزم وتصميم أن مصر قد قررت الوقوف موقف الحياد الدولى، وذلك لكى تتخلص من الاستعمار أولاً، ثم لكى تتجنب ويلات الحروب ثانيًا، وأخيرًا لكى تحقق مصالحها الحقيقية بتبادل المنافع مع كافة الدول، وبذلك تخدم نفسها، كما تخدم السلام العالمى الذى لا يهدده اليوم شىء كما يهدده التكتل..

لقد وصلت الحكومة الحالية بغموض سياستها وعجزها إلى درجة تقهقرت معها قضية الوطن، واضطربت الأحوال الداخلية، وبدلاً من أن تعالج تلك الحكومة القضية الوطنية والمشاكل الداخلية العلاج الصحيح، أصبحت ولا همّ لها إلا أخذ البلاد بالحديد والنار، وسن التشريعات الرجعية، وهذه كلها أمارات إفلاس، فى السياسة؛ لأن أىّ حاكم يستطيع أن يسلط ما بين يديه من قوة مادية على الشعب، ولكن كل حاكم لا يستطيع أن يكسب رضا الشعب واطمئنانه بالإصلاح المنتج والسياسة الإنشائية؛ لأن ذلك يحتاج إلى كفاءة ممتازة، وجرأة فى الرأى والمبادأة، فضلاً عن التمتع بثقة الشعب وتأييده».

الهوامش

(١) استقال محمد مندور من الجامعة سنة ١٩٤٣، لكنه لم يتوقف عن العمل الأكاديمى فى المعهد العالى للصحافة التابع لكلية الآداب، جامعة القاهرة، ومعهد التمثيل، ومعهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية.

(٢) فؤاد دوارة، عشرة أدباء يتحدثون، دار الهلال، ١٩٦٥، ص١٧٣، ١٧٤.

(٣) السابق: ص١٧٨، ١٧٩.

(٤) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن علاقته الشائكة بالجامعة التى انتهت بالاستقالة يمكن مراجعة ما جاء فى كتاب فؤاد دوارة ص١٨٧ – ١٩١، ويمكن كذلك مراجعة مقال لكاتبة هذه السطور عنوانه «محمد مندور مناضل وطنى لا يذكره أحد» منشور فى مجلة إبداع بتاريخ مايو، يونية ٢٠٠٢.

(٥) مقال: من أعماق السجن، جريدة الوفد المصرى، ١٩٤٥/٧/٢٦.

(٦) د.جابر عصفور، قراءات فى النقد الأدبى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص٢٢٠.

(٧) السابق، ص٢٢١.

(٨) مجلة روزاليوسف، مقال: لماذا اشتغلتُ بالسياسة، ١٩٦٤/١٢/١٤.

(٩) هو القانونى والصحفى والسياسى والشاعر الدكتور عزيز فهمى ولد فى ١٩٠٩/١٠/٩، وهو نجل القطب الوفدى الكبير عبدالسلام فهمى جمعة باشا حصل من جامعة فؤاد الأول على ليسانس الحقوق والآداب «فى اللغة العربية سنة ١٩٣١»، وحصل على الدكتوراه فى القانون سنة ١٩٣٨ من باريس. وعاد إلى مصر سنة ١٩٤٢ ليعمل وكيلاً للنيابة بالمحاكم المختلطة، ثم استقال من العمل الحكومى سنة ١٩٤٤ وتفرغ للسياسة والصحافة والمحاماة. أثرى عزيز فهمى صحف الوفد الكبرى بمقالاته السياسية، وشارك محمد مندور الكتابة فى الوفد المصرى وصوت الأمة. كان عضوًا بارزًا فى الطليعة الوفدية ودخل البرلمان سنة ١٩٥٠ عن دائرة الجمالية وكانت مواقفه فيه وطنية مصرية قبل أن تكون وفدية. استشهد عزيز فهمى فى حادث سيارة غامض فى ١٩٥٢/٥/١ وهو فى طريقه للمرافعة فى إحدى القضايا.

(١٠) عشرة أدباء يتحدثون، ص١٩٥ –١٩٦.

(١١) السابق، ص١٩٤.

(١٢) السابق، ص١٩٥.

(١٣) عشرة أدباء يتحدثون، ص١٩٦.

(١٤) جريدة صوت الأمة، الضرائب التصاعدية فى مجلس الشيوخ، ١٩٤٨/٦/٢٠.

(١٥) قراءات فى النقد الأدبى، ص٢٢٢، ٢٢٣.

(١٦) عشرة أدباء يتحدثون، ص١٩٧.

(١٧) السابق، ص١٩٩ – ٢٠٠.

(١٨) السابق، ص١٩٨.

(١٩) روزاليوسف، لماذا اشتغلت بالسياسة، ١٩٦٤/١٢/١٤.

(٢٠) جريدة الوفد المصرى، ١٩٤٥/١١/١٦.

(٢١) تولى النقراشى رئاسة الوزارة عقب اغتيال الدكتور أحمد ماهر فى ١٩٤٥/٢/٢٤.

(٢٢) جريدة الوفد المصرى، ١٩٤٦/٢/١٠.

(٢٣) جريدة الوفد المصرى، ١٩٤٦/٢/٢٣.

(٢٤) جريدة الوفد المصرى، مقال: الإنجليز يقتلون المصريين، ورئيس الوزراء يجرح وطنيتهم، وينذرهم بالويل والثبور، ١٩٤٦/٢/٢٢.

(٢٥) جريدة صوت الأمة، ١٩٤٨/٤/٢٤

كتاب

وثائق مجهولة:
الأفغانى وتلاميذه

توفيق حنا

صـدر هذا التـحـقـيق المهم عن «المركـز العـربى للإعـلام والنشـر» عن «الأفـغـانى وتلاميذه»، قدمه الدكتور على شلش، هذا الباحث الجاد الذى فقدناه منذ سنوات، وهذا التحقيق وثيقة مهمة تتناول بالدراسة عصر إسماعيل وعصر توفيق، كما تحدثنا عن عصر السلطان عبد الحميد وكان الدكتور على شلش قد سبق أن قدم عن «المركز العربى للإعلام والنشر» وثيقة خطيرة تصور انهيار الخلافة العثمانية وسقوطها.. وقال على شلش إن هذا الكتاب «ما هنالك» الذى ألفه إبراهيم المويلحى كان فى الأصل مجموعة مقالات نشرها مؤلفها فى جريدة «المقطم» ويقول على شلش «كان ودى أن يوضع له عنوان آخر يشير إلى موضوعه، فتم اختيار محققه أحمد حسين الطحاوى لهذا العنوان، ولكن العنوان الذى شغلنى هو «سقوط الخلافة».

وكان الدكتور على شلش مشغولا بإضاءة هذه الجوانب المظلمة والمجهولة فى تاريخنا.. سواء كان تاريخنا السياسى أو الاجتماعى أو الأدبى ..

وكان هدفه عن بحثه الدائب عن المجهول أو المنسى أو المهمل من هذا التاريخ أن يدفع الباحثين والدارسين والمؤرخين إلى العمل لكشف وإبراز ما أهمله.. أو تناساه .. هذا التاريخ.. التاريخ الحديث أو الوسيط أو القديم..

يحدثنا على شلش عن الأسباب والدوافع وراء اختيار هذه الوثيقة المجهولة لتحقيقها ونشرها.

«فى سنة ١٩٦٣ نشرت جامعة طهران مجلدا يضم وثائق غير منشورة تتعلق بالسيد جمال الدين المعروف بالأفغاني، وضمت هذه الوثائق مجموعة من الأوراق الخاصة المكتوبة بالعربية، جنبا إلى جنب مع مجموعة أخرى من الأوراق المكتوبة بالفارسية والفرنسية.

ونظرا للأهمية الكبيرة التى تكمن فى الأوراق العربية فقد حرصت على تصويرها كاملة ونسخها وتزويدها بالشروح والهوامش والتعليقات اللازمة حتى يمكن الاستفادة منها وفهما» ويحدد على شلش هدفه وغايته:

«راجيا من هذا كله أن أضع أمام الباحثين مجموعة من الوثائق التى لا تخص الأفغانى وحده أو تلاميذه وحدهم، بمقدار ما تخص عصر إسماعيل وتوفيق فى تاريخ مصر الحديث».

تبدأ هذه الوثائق بالحديث عن الماسونية وعلاقة الأفغانى بها.. كيف دخل محافلها، وارتقى درجاتها.. وكيف انتهت علاقته بها بأن ترك الماسونية وهاجمها.

يقول على شلش:

«لقد كشفت أوراق الأفغانى الخاصة التى نشرتها جامعة طهران سنة ١٩٦٣ عن بعض المعلومات المهمة فى هذا الموضوع ومنها ورقة سجل فيها الأفغانى مسودة طلب التحاق بإحدى المحافل، وعليها تاريخ يوم الخميس ٢٢ ربيع الثانى ١٣٩٢هـ (الموافق ٣١ مارس ١٨٧٥) وفيها كتب الأفغانى بخطة الفارسى الجميل:

«يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابلى، الذى مضى من عمره سبعة وثلاثون سنة، بأنى ارجو من إخوان الصفاء واستدعى من فلان الوفاء، أعنى أسباب المجمع المقدس الماسون، الذى هو عن الخلل والزلل مصون، أن

يمنوا علي، ويتفضلوا بقبولى فى ذلك المجمع المطهر، وبإدخالى فى سلك المتخطين فى ذلك المنتدى المفتخر.

ولكم الفضل

جمال الدين الكابلي

يقول على شلش «إن الماسونية دخلت مصر على أيدى الأوربيين النازحين، وبدأت فى استقطاب الأهالى وتشجيعهم على اعتناقها خلال عصر إسماعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩)، وبصفة خاصة، أو ابتداء من ١٨٦٨ على الأقل حين أصبح الأمير حليم، المطالب بالعرش، أستاذاً أكبر لمحفل الشرق الأعظم المصرى».

●●●

وتحدثنا هذه الوثائق عن اعتقال جمال الدين الأفغانى وعن سبب هذا الاعتقال.. فقد اعتقل جمال الدين الأفغانى بعد اتصاله بالقنصل الفرنسى وكيف أسىء فهم وتفسير هذا اللقاء.. الذى تم قبل أيام من خلع إسماعيل.. ويعلق على شلش على هذا الحادث.

«من الواضع أن ماحدث كان جرأة كبيرة من الأفغانى بمقاييس زمامنا هذا، فما فعله ينطبق عليه تعبير التخابر والاتصال بدولة أجنبية.. ومن الواضح أنه تطوع بذلك العمل جنبا وتقربا للخديو الجديد (توفيق) صديقه وعضو محفله، وتعبيرا عن الرغبة العامة فى التخلص من أبيه...» ثم يقول شلش:

«وبعد طرد الأفغانى من مصر (أغسطس ١٨٧٩، تشتت أخوانه الماسونيون، ولم يبق سوى إخوان حليم باشا الذين كان من المحتم عليهم أن يبادروا بالمصالحة مع النظام الجديد، وإلا تعرضوا لما تعرض له خصمهم (إسماعيل).

ثم يستعرض لنا على شلش هذه الرسائل التى تبودلت الأفغانى وتلاميذه ويبدأها بهاتين الرسالتين من محمد عبده ويعلق على شلش علي أسلوب هاتين الرسالتين:

«نلمس فى هاتين الرسالتين كيف يسمو حب التلميذ لأستاذه إلى مرتبة العبادة ويقدم لنا هاتين الرسالتين بهذه الكلمات (كتب محمد عبده هاتين الرسالتين عام ١٨٨٣ من بيروت):

«كان محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥) أخلص تلميذ لأستاذه الأفغانى (١٨٣٧ - ١٨٩٧)، وكان أطول أقرانه ملازمة ومعاشرة للأستاذ ومحمد عبده هو أول من وضع سيرة لأستاذه بناها على كمال الخبرة وطول العشرة، كما قال وهو أيضاً أبرز تلاميذ الأفغانى وأهمهم فى مجال الإصلاح والاستنارة».

وبعد تقديمه للرسالتين وتعليقه عليهما يقول على شلش:

«بقيت بعد ذلك رسالة ثالثة لم ترد بأصلها العربى فى المجلد الذى ضم وثائق الأفغانى وأوراقه، وإنما وردت منقولة إلى الفارسية عن الأصل العربى المحفوظ بمكتبه البرلمان الإيراني، وتاريخ هذه الرسالة هو ٢٤ ديسمبر ١٨٨٤، وقد كتبها محمد عبده من تونس حول تأسيس جمعية «العروة الوثقي»، وكان محمد عبده قد نفى من مصر فى أواخر ١٨٨٢ بعد هزيمة الثورة العرابية ونلمس فى رسالة محمد عبده الأولى (١٨٨٣) مدى احترام وإعزاز وتقدير التلميذ لأستاذه:

«مولاى الأعظم حفظه الله وأيد مقاصده».

ليتنى كنت أعلم ماذا أكتب إليك، وأنت تعلم ما فى نفسى كما تعلم ما فى نفسك. صنعتنا بيديك، وافضت على موادنا صورها الكمالية، وأنشأتنا فى أحسن تقويم فيك عرفنا أنفسنا. وبك عرفناك، وبك عرفنا العالم أجمعين».

ثم يحدثنا على شلش عن رسائل المريد الثانى لجمال الدين الأفغانى وهو إبراهيم اللقانى.

فى هذه الرسائل يسجل اللقانى ما حدث لتلاميذ الأفغانى بعد طرده من مصر.

ويقول على شلش عن إبراهيم اللقانى:

«كان اللقانى يتلقى العلم فى الأزهر عندما جاء الأفغانى إلى القاهرة، ثم أصبح صحفيا وشاعرا ومحاميا..

تولى تحرير صحيفة «مرآة الشرق» الأسبوعية، ثم عمل مع محمد عبده فى جريدة «الوقائع المصرية»، بعد إيقاف صحيفته على أثر طرد الأفغاني، وشارك فى الثورة العرابية وسجن ونفى مع زميله محمد عبده على أثر فشل الثورة..

وهذه الرسائل أرسلها اللقانى من منفاه فى بيروت.

فى الرسالة الأولي.. يقول على شلش يصور اللقانى ما حدث له ولجماعته، محمد عبده وسعد زغلول وغيرهما، من مطاردة ومراقبة واضطهاد على أيدى شرطة الخديو بعد رحيل أستاذه.

وفى الرسالة الأخيرة - يقول على شلش - يدافع اللقانى عن زميله محمد عبده، ويوضح لأستاذه موقفا بلغه عنه، وتسبب فى سوء فهمه، ويكشف عن موقف جريدة «الأهرام» من الأفغانى.

ثم يحدثنا على شلش عن إبراهيم المويلحى مؤلف كتاب «ما هنالك» (باكورة إصدارات» المركز العربى للإعلام والنشر) وكان على شلش يقترح له عنوان «سقوط الخلافة» ولكن المحقق أحمد حسين الطحاوى اختار هذا العنوان!):

«لما عزل إسماعيل عام ١٨٧٩ وسافر إلى أوربا، لحق به إبراهيم المويلحى وعمل سكرتيرا له، ثم أصدر له إسماعيل صحيفة فى باريس باسم «الاتحاد» للهجوم على غريمه وغازله السلطان عبد الحميد، ولكن ما لبث أن نشب خلاف بين الخديو المعزول والسكرتير الطموح» فافترق الأخير عنه، وارتبط بجمال الدين الأفغانى حتى عام ١٨٨٥ وعند ذلك أصلح علاقته بالسلطان وترك أوربا إلى عاصمة الخلافة حيث أقام نحو عشر سنين معززا مكرما من السلطان.. وبعدها عاد المويلحى إلى القاهرة وأصدر كتابا بعنوان «ما هنالك»، فضح فيه ما يجرى فى عاصمة الخلافة وعدّه السلطان معاديا له، ثم أصدر صحيفة «مصباح الشرق» فى القاهرة، وظل يوافيها بطاقته المتدفقة حتى وفاته عام ١٩٠٦ عن ٦٢ عاما».

ومحمد المويلحى صاحب «حديث عيسى بن هشام» - يقول على شلش - هو ابن إبراهيم المويلحى وعاش مع أبيه فى أوربا ثم عاد إلى مصر، حيث ألف هذا العمل الذى خلده.

وبعد ذلك ينتقل إلى تلميذ آخر من تلامذة الأفغانى وهو إسماعيل جودت.

وعن هذا التلميذ يقول على شلش «ذكر بلندن إن جودت كان يشغل منصب رئيس شرطة الأجانب أثناء الثورة العرابية، الأمر الذى لم تذكره المصادر العربية عن الثورة ثم يقول «درس إسماعيل جودت فى باريس فى عهد محمد سعيد، ثم عينه إسماعيل

مديرا للأوبرا بعد افتتاحها سنة ١٨٦٩، وقد ألف بعض المسرحيات وعرف الأفغانى عند مجيئه إلى مصر، وشارك فى الثورة العرابية ونفى بسببها، واشترك فى وفد اتفاقية لندن المتعلقة بمصر سنة ١٨٨٥، وعمل بالمحاماة بعد عودته من المنفى حتى وفاته سنة ١٨٩٧.

أرسل إسماعيل جودت رسالته من الأستانة يوم الاثنين ٢٧ إبريل ١٨٨٥ وهى رد على رسالة من الأفغانى ويورد على شلش رسالة من تلميذ آخر للأفغانى وهو أديب أسحق (١٨٥٦ - ١٨٨٤) إلى أستاذه الأفغانى.

وتنتهى هذه الوثيقة المهمة والتى تعتبر إضافة غنية بأخبارها وأبطالها إلى المكتبة التاريخية..

تنتهى برسالتين من «أبو الهدى الصيادى» وهو الذى ألف عبد الله نديم كتابه «المسامير» ضده وضد أساليبه الملتوية التى هى عكس اسمه «أبو الهدى»..

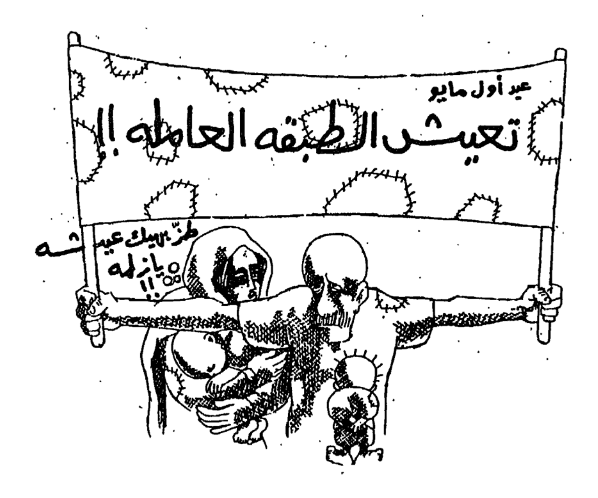
ويقول عنه على شلش إنه «كان كبير البصاصين (الجواسيس) للسلطان عبد الحميد، وقد لعب دورا مدمرا فى تقويض بناء هذه الامبراطورية التى كانت آيلة للسقوط».

«كتب الصيادى رسالتين للأفغانى بأسلوب يجمع بين الوعد والوعيد.. يقول على شلش.. أو الترغيب والترهيب . ومن المؤكد أنهما استفزتا فى الأفغانى نخوته الدينية وحرصه على طيب علاقته بالسلطان، ومن المؤكد أيضا أنهما ساهمتا بنصيب كبير فى إقناعه بالحضور إلى صاحب دعوته.

«وهكذا شد الأفغانى رحاله إلى الأستانة - يقول على شلش أخيرا - فى أوائل يوليو ١٨٩٢، وكانت رحلته هذه هى الأخيرة.. قبل رحلته الأبدية».



منذ سنوات قابلت الصديق على شلش فى لندن، وكنت أحرص على لقائه سواء كان فى القاهرة أو فى لندن وهو الذى أهدانى كتابى «ماهنالك» و«الأفغانى وتلاميذه» وقال لى فى ذلك اللقاء الأخير إنه مشغول بجمع صفحات مجهولة تتعلق بالدكتور أحمد ضيف هذا العالم المصرى الذى كان أول من نبه إلى أهمية دراسة الفولكلور المصري.



ولا أدرى ماذا تم فى هذا العمل الجدير بالمتابعة والاهتمام.. ترى هل تمكن الصديق على شلش أن ينتهى من جمع هذه الوثائق المتعلقة بالدكتور أحمد ضيف وهل تمكن من نشرها قبل رحيله عن دنيانا.. ولعل هناك دراسات أخرى مخطوطة لهذا الباحث الجاد.. تنتظر أن ترى النور.. ترى ما الجهة المسئولة عن البحث عن الأعمال غير المنشورة للعلماء والباحثين الراحلين؟

دراسة

أغنية الغضب وأغنية الرضا

السيد زهرة

رحل سيد درويش فى عام ١٩٢٣ بعد الثورة العاصفة التى أحدثها فى عالم الأغنية الوطنية. فى ذلك الوقت بعد رحيله، كانت ساحة الموسيقى والغناء تشهد بزوغ نجمين جديدين يشقان بسرعة البرق طريقهما نحو القمة.. أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب.

كانت أم كلثوم القادمة من قلب الريف المصري، قد قامت بعملية" غزو" فنى للقاهرة بصوت معجز لا مثيل له، وباختيارات جديدة متقنة من الكلمات والألحان، ومسلحة بخبرة ثرية طويلة فى غناء التواشيح والأناشيد الدينية، وبذكاء اجتماعى منقطع النظير، وباصرار ودأب على ان تعوض ما فاتها من ثقافة وعلم. وهكذا، فى غضون سنوات قلائل، كانت أم كلثوم قد أزاحت" سلطانة الطرب" و" ملكة الغناء" منيرة المهدية عن عرشها، وتجاوزت" مطربة القطرين" فتحية أحمد، وانفردت بالقمة.

فى نفس الوقت، كان محمد عبدالوهاب قد اكتسب خبرة كبيرة من التنقل بين المسارح والغناء فى المسرحيات، وبذل جهدا كى يتعلم أصول الموسيقى والغناء. وكان حظه قد أتاح له ان يتعلم الكثير من سيد درويش مباشرة. واستطاع بصوت ساحر مذهل، وتجديدات، وتطويرات، و"اقتباسات" موسيقية وغنائية، و برعاية ودعم لا يكل

من أمير الشعراء احمد شوقي، وأيضا بذكاء اجتماعى كبير، ان يصعد إلى قمة الغناء، وعجز كبار مطربى ذلك الزمن عن اللحاق به.

وهكذا، لم يكد عقد العشرينيات ينقضى ويطل عقد الثلاثينيات، الا وكانت أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب قد تربعا على عرش الغناء والموسيقى، وظلا على هذا العرش طوال العقود التالية.

مالذى حل بالأغنية الوطنية فى ذلك الزمن، وتحديدا منذ رحيل سيد درويش وحتى قيام ثورة يوليو؟.

الذى حدث انه طوال تلك الفترة، اى لما يقرب من ثلاثة عقود، ارتد حال الأغنية الوطنية إلى نحو نصف قرن إلى الوراء.. ارتد الحال إلى نفس زمن عبده الحامولى ومحمد عثمان عندما كان الشعب وثورته العرابية فى واد، والمطربين الكبيرين المهيمنين على ساحة الغناء فى واد آخر.

كانت سلطة الاحتلال البريطانى قد اكتشفت بالطبع الدور المذهل الذى لعبته الأغنية الوطنية على يد سيد درويش فى ثورة الشعب على الاحتلال. فى ذلك الوقت كانت قد نشأت الإذاعة التى تديرها شركة ماركوني. كانت تديرها بتعليمات وتوصيات مباشرة من اجهزة الاعلام والسياسة فى بريطانيا.

فى كتابه" الإذاعة فى بناء الانسان"، يرصد الإذاعى الكبير ايهاب الأزهرى هذه الملاحظة البالغة المعنى والدلالة. يقول ان الانتاج الغنائى فى راديو ماركونى كان مشروطا باصطحاب التخت، وان يتغلب فيه اسلوب المط والتطويل والتكرار ليكون الأجر على مقدار ما تستغرقه الأغنية من وقت، وبأن تعلو قيمة المغنى على كل من مؤلفى النظم واللحن، وبأن توضع طائفة من المحظورات فى قانون المطبوعات لتضييق الخناق على المؤلفين.

كانت سلطات الاحتلال البريطانى تريد ان تحول، بأى شكل و بأى ثمن دون أن يظهر إلى الوجود سيد درويش آخر أو بديع خيرى آخر.

كانت تريد ألا تعود إلى عالم الغناء تلك الأغانى النارية الخالية من الآهات والمط والتطويل والتى كان الشيخ سيد يطلقها كما طلقات الرصاص.

كانت سلطات الاحتلال تريد ان تعود بالغناء والموسيقى إلى عهد ما قبل سيد درويش. وهذا بالضبط هو ما حدث.

ومع هذا، لم يكن هذا هو السبب الوحيد ولا الأساسي للردة التى شهدتها الأغنية الوطنية. السبب الجوهرى ان أم كلثوم وعبدالوهاب، قائدا قافلة الغناء والموسيقى، كانت أنظارهما منذ البداية معلقة بالقصر، والغناء له.

كان عبدالوهاب قد ظل لفترة طويلة سعيدا بلقب" مطرب الملوك والأمراء" ويصر على ان يفاخر به فى الدعاية لاسطواناته. وكان احمد شوقى قد جعل من عبدالوهاب" المطرب الرسمى المعتمد" لإحياء ليإلى وسهرات الباشوات والأعيان وعلية القوم.

وعندما تولى الملك فاروق السلطة فى يوليو عام ١٩٣٧، ذهبت أم كلثوم فى مساء نفس اليوم إلى قصر عابدين، وغنت لفاروق وأسرته وحاشيته، قصيدة احمد شوقي" عيد الدهر". ومنذ ذلك اليوم سوف تصبح هى المطربة الأولى وشبه الرسمية للسراي. وسوف يحاول عبدالوهاب ان يدخل فى منافسة معها على الغناء للملك.

حدثت الردة، وعاد قطبا الغناء بالأغنية الوطنية إلى عصر الحامولي. ووصل التشابه بين العهدين حدا مذهلا.

ولكن كيف؟.



محلاها عيشة الفلاح

ثلاث نكسات كبرى حلت بالأغنية الوطنية فى الفترة الممتدة منذ رحيل سيد درويش وحتى قيام ثورة يوليو، أى نحو ثلاثين عاما، وهى الفترة التى تربعت فيها أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب على عرش الغناء والموسيقى.

النكسة الاولى تمثلت فى الغياب شبه الكامل تقريبا للأغنية الوطنية ذات المضمون الاجتماعي، أى التى تعبر عن هموم وأحزان الفئات والطوائف الفقيرة المطحونة فى المجتمع والمظالم التى تعانى منها. رأينا كيف ان سيد درويش ترك تراثا كبيرا من هذه الأغاني، وكيف أنه لم يترك طائفة من طوائف المجتمع الا وغنى لها وعبر عن

آلامها.

طوال ذلك العهد، وفى ظل قيادة أم كلثوم وعبدالوهاب لقافلة الغناء والموسيقى، لا نكاد نعثر على أغنية واحدة من هذا القبيل. ليس هذا فحسب، بل اننا نجد العكس. نجد أغانى كثيرة تحاول ان تجمل وتزيف الواقع المر للطبقات الفقيرة فى المجتمع، وبشكل مضحك فى بعض الأحيان. ويكفى فقط ان نضرب هذا المثال.

كان الفلاحون المصريون يعيشون أوضاعا مأساوية مزرية، ويعانون من أشد انواع الظلم فى ظل الاقطاع، ويعاملون فى احيان كثيرة معاملة اشبه ما تكون بمعاملة العبيد. فى ظل هذه الأوضاع، سنجد محمد عبدالوهاب، وبمنتهى الثقة ، يغنى فى احد أفلامه أغنيته الشهيرة:

محلاها عيشة الفلاح... مطمن قلبه مرتاح... يتمرغ على أرض براح

كان عبدالوهاب يغنى لفلاحين لا وجود لهم الا فى الخيال.. خيال أغنيته . ولكى تكتمل هذه الصورة الخيالية، كان محمد كريم، مخرج افلام عبدالوهاب، يصر على أن يفعل شيئا عجيبا لا مثيل له ربما فى تاريخ السينما فى العالم كله. كان يصر على أن اى جاموسة او بقرة تظهر فى الفيلم يجب أن تخضع مسبقا لعملية" استحمام" مكثفة بالماء والصابون كى تظهر فى الفيلم فى ابهى حلة وصورة. وكان يفعل نفس الشئ مع الأشجار بغسيلها لكى تظهر لامعة براقة .. هذا كى لا"تتشوه" صورة الأرض البراح" التي" يتمرغ" فيها الفلاح.

" محلاها عيشة الفلاح"، كانت تجسيدا دراميا، ومضحكا، عن الحال الذى وصلت اليه الأغنية من انفصال عن الشعب وهمومه.

اما النكسة الثانية التى حلت بالأغنية الوطنية، فكانت على مستوى اللحن والأداء.

غابت تلك الألحان الوطنية الهادرة التى كان يغنيها سيد درويش، ويغنيها معه الشعب. تلك الألحان التى كانت تتدفق حماسة وتؤجج المشاعر.

عادت الأغاني، بما فى ذلك التى من المفروض انها أغانى وطنية، إلى عصر التطريب والمط والتطويل. يكفى ان نضرب فقط هذا المثال.

فى ذلك الزمن، وتحديدا فى عام ١٩٤٣، غنى عبدالوهاب أغنية وطنية اسمها" مين

زيك عندى ياخضـرة". فكرة الأغنيـة وكلمـاتها رقيقة وجميلة، فـهى تتحـدث عن جندى ذاهب إلى ميدان المعركة ويريد ان يستمد العون من حبيبته"خضـرة" اى من الوطن. من كلمـاتها مثلا" جودى على بنظرة وانا رايح للميدان".. ومن كلمـاتها ايضـا" كيف يغزى أرض حبيبتى رجاله-واحنا رجال". لكن عبدالوهاب غنى الأغنية هكذا:

مين زاااايك عاااانديى يا خااااضرة".. إلى ان يردد مثلا" وانا رااايح احااارب".

كان اللحن جميلا كلحن تطرب له وتستمتع به وانت فى حالة استرخاء. لكنه على وجـه اليـقين لم يكن لحنا يليق بان يردده جندى يرتدى زيا عـسكريا وفى طريقـه للمعركة. كان بالأحرى لحنا يليق بواحد يرتدى بيجامة ويريد من حبيبته ان تسنده إلى ان يصل بسلام إلى السرير كى يخلد فى نوم عميق.

عبدالوهاب غنى" مين زيك عندى ياخضـرة" على طريقة" ماركوني".. كأنه لم يتتلمذ على يد سيد درويش او يتعلم منه شيئا. كانت هذه هى الروح العامة التى انتهت اليها ألحان أغلب الأغانى الوطنية.

اما النكسة الثالثة التى منيت بها الأغنية الوطنيـة، والتى هى اكبـر النكسـات والتجسيد الأساسى لمرحلة الردة تلك، فهى انها انفصلت انفصالا يكاد يكون كاملا عن كفاح الشعب وحركته الوطنية المتأججة.



يعيش فاروق ويتهنى!

طوال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، لم تتوقف الحركة الوطنية المصرية المطالبة بالاستقلال والتحرر والرافضـة للظلم الاجتماعى والفساد السـياسـي. وشـهد عقد الأربعينيات بالذات احداثا وتطورات جسام.

اندلعت حـركة الطلبة والعمال فى انتفـاضـة شعبية عارمة، وخرجت المظاهرات الحاشدة منذ اواخر عام ٤٥ وطوال عام ٤٦ تطالب بالجلاء والحرية.

نشبت بعد ذلك حرب فلسطين، وذهب الجنود إلى الحرب، وكان الشـهداء يسقطون والشـعب يتابع تطورات المعارك وأخبار فضيحة الأسلحة الفاسدة. وتصاعد الحديث

فى المجتمع عن فساد الملكية وحكوماتها المتعاقبة. ونشأت فى غمار ذلك حركة الضباط الأحرار.

وعندما حل عام ١٩٥١، كانت المقاومة الشعبية المسلحة قد اشتعلت فى مدن القناة ضد قوات الاحتلال.

أين كان قطبا الغناء والموسيقى فى ذلك الوقت، أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب، من هذه الأحداث والتطورات العاصفة؟

كان قد أصبح تقليدا ان أم كلثوم هى التى تحيى كل مناسبات القصر.. عيد الميلاد، وعيد الجلوس، والأفراح. وفى كل مناسبة كانت تحرص على ان تطل بأغنية جديدة. وهكذا تدفقت أغانيها للملك.. عيد الدهر.. يا مليك النيل.. يا ربوع النيل.. يا بهجة الروح.. لاح نور الفجر.. يا مليكي.. أوان الورد.. مولد الفاروق.. وهكذا.

وفى ٢٨ يونيو ١٩٤٥، كانت أم كلثوم تغنى فى حديقة النادى الأهلي، وكان الملك فاروق حاضرا. غنت له" يا ليلة العيد"، ورددت:

يعيش فاروق ويتهنى... ونحييله ليالى العيد

فى نهاية الحفل أنعم فاروق على أم كلثوم ب" نيشان الكمال" لتصبح منذ ذلك الوقت" صاحبة العصمة" مثلها مثل كثير من الأميرات.

حين كان الشارع يموج بمظاهرات الغضب وتعلو الحناجر مطالبة برحيل الاحتلال والتحرر، كان أقصى ما بمقدور أم كلثوم أن تفعله هو التالي:

حين كانت تغنى رائعة احمد شوقى والسنباطى الكبرى" سلوا قلبي"، وتأتى عند البيت:" وما نيل المطالب بالتمني... ولكن تؤخذ الدنيا غلابا".. كانت القاعة تضج بالتصفيق.. وكانت أم كلثوم تعيد البيت وتجيد.

نفس ماكان الحامولى يفعله حين كانت الثورة العرابية فى ذروتها، وأقصى ما يستطيع ان يفعله هو أن يعيد ويجيد عندما يأتى الى" فين العدل يا منصفين".

محمد عبدالوهاب من جانبه، كان قد تغنى للملك ببضعة أغنيات من أشهرها، أنشودة الملك، وأنشودة التاجين. وحين حصلت أم كلثوم على نيشان الكمال، أرسل الوسطاء إلى القصر كى ينعم عليه بلقب" باشا" أو حتى" بيك". لكن القصر رفض،

وتوقف عبدالوهاب عن الغناء للملك تعبيرا عن الاستياء والغضب.

اذن كان الشعب وكفاحه وحركته الوطنية فى واد، وقائدا قافلة الغناء فى واد آخر.

بعض الذين يدافعون عن غناء أم كلثوم وعبدالوهاب للملك فاروق فى ذلك الزمن يقولون ان فاروق كان لفترات ملكا محبوبا من الشعب، ولهذا لم يكن غريبا ولا مستهجنا أن يغنيا له. وهذا صحيح جزئيا فقط. ذلك ان الفترات التى كان فيها فاروق يحظى بشعبية، كانت فترات قصيرة، وعلى وجه اليقين لا يصح هذا فى الفترة العاصفة فى النصف الثانى من الأربعينيات وحتى اندلاع ثورة يوليو.

ومن الواضح ان هذا الغياب عن ساحة العمل الوطنى كان مثار استياء واستهجان الكثيرين فى ذلك الوقت. الناس فى تلك الحقبة، كانوا يريدون من مطربيهما الكبيرين ان يتفاعلا مع الأحداث الوطنية الكبرى.

لهذا نجد عبدالوهاب يكتب مقالا فريدا فى ذلك الوقت، يناقش فيه هذه القضية تحديدا. وهو مقال يستحق التأمل ويلخص القضية برمتها.

●●●

والنبى لحن لبلادك!!

بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٩٤٨، كتب محمد عبدالوهاب مقالا فريدا نشرته مجلة المصور.

بدأ المقال على النحو التالي: "يطلب منى بعضهم هذه الأيام طلبات غريبة وعجيبة. طلبات يظنونها سهلة التحقيق وأنها فى متناول الفنان الذى يحسبون مزاجه طوع ارادتهم وارادته... يطلبون منى أن أنظم لهم ألحانا حماسية تشعل النار فى النفوس، وتدك الجبال دكا، ولا تقوى الطائرات ولا المدافع ولا القنابل الذرية على مقاومة القوة التى تبعثها".

ويمضى عبدالوهاب فى السخرية من هذه" الطلبات الغريبة العجيبة"، فيقول:" ... يطلبون منى أن أخرج لهم أناشيد يكفى أن يرددوها وهم سائرون فى الطرقات حتى تنفتح أمامهم الأمصار دون كبير عناء وحتى تنهار الحصون دون مدافع وقنابل".

ويفند عبدالوهاب، من وجهة نظره آراء هؤلاء ويسوق أكثر من حجة. يقول مثلا: ".. وأنا أقول لهؤلاء وأولئك لماذا تطلبون منى أنا بالذات هذا اللون من الألحان؟.. هل تريدون أن أكون معمل ألحان على جميع المقاسات والأصناف؟.. هل قرأتم أن أحدا من الناس طلب ذات مرة إلى شوبان أو بيتهوفن أو سواهما من أعلام اللحن أن يلحن قطعة يكفى أن يرددها لكى يفتحوا روسيا مثلا؟!.. هل قالوا لبيتهوفن: والنبى لحن لبلادك قطعة تبعث الحماس فى النفوس فتدفعها لغزو جارتها؟!".

بالطبع لم يكن الذين يطالبون عبدالوهاب بمثل هذه الأغانى الوطنية يدور فى أذهانهم أن ألحانه سوف تسقط الحصون وتغزو البلدان على نحو ماكتب ساخرا. كل ما كانوا يطالبون به مطربهم الأول هو ألحان تواكب الكفاح الوطنى وتتفاعل مع الأحداث الجسيمة التى يشهدها الوطن. سيد درويش مثلا عندما غنى، وغنى معه الشعب المئات من ألحانه الوطنية، لم يكن فى ذهنه ولا فى ذهن أحد أن هذه الألحان سوف تغزو البلدان أو تسقط الحصون. كانت هذه الألحان ببساطة جزءا من معركة الشعب فى كفاحه من أجل التحرر والاستقلال ورفع الظلم.

على أية حال، يحرص عبدالوهاب فى مقاله على أن يغلق باب النقاش فى القضية برمتها، ويقدم حجة هى من وجهة نظره حجة دامغة لا تقبل الرد تبرر رفضه هذا اللون من الألحان. يقول: " ومع ذلك، فلست من أرباب هذا اللون من الألحان: لقد عشت فى جو رقيق اتسم بالدعة والهدوء. وعاشت ألحانى معى فى هذا الجو الرقيق بين الجمال والحب. ولا أود الخروج من جوى هذا لأساهم فى فتح عكا بلحن جبار بتار كله نار".

عموما، هكذا وضع عبدالوهاب القضية بوضوح وصراحة. ويحسب له فى الحقيقة أنه كان صادقا مع نفسه ومع محبى فنه أشد ما يكون الصدق. كان واضحا فى تبيان أن رفضه لغناء مثل هذه الألحان فى تلك الفترة الفاصلة فى تاريخ الوطن وحركته الوطنية كان عن وعى تام وعن اختيار. لم يكن ببساطة يعتبر أنه من أرباب هذه الألحان، ولم يكن يريد أن يخرج من حالة" الدعة والهدوء" التي يعيشها.

لكن الشعب كان يغلى بالغضب، والنقمة على القصر وعلى الاحتلال الغاشم. وقد

شاءت الظروف أن يكون العام السابق لثورة يوليو، أى عام ١٩٥١، تجسيدا لذروة انفصال قطبا الغناء والموسيقى عن الشعب ومعركته الوطنية. كانت المقاومة الشعبية المسلحة الباسلة قد اندلعت فى مدن القناة.. كان الشهداء يسقطون، والاحتلال يرتكب المذابح والمجازر، ولا حديث للناس الا فساد القصر والأحزاب والساسة.

فى نفس ذلك العام، كانت أم كلثوم تحيى ثلاث حفلات للملك، وتغنى له نشيد "حفظ الله الملك". وكان عبدالوهاب مازال يرفض الخروج من" الجو الرقيق" الذى يعيش فيه، وكان مازال يستخف" بهؤلاء وأولئك" الذين يناشدونه"... والنبى لحن لبلادك" حسب تعبيره.

وقد كان لأم كلثوم وعبدالوهاب أغانى وطنية رائعة فى تلك الفترة. ومع هذا، فإن الفارق كان كبيرا بينها وبين أغانى سيد درويش الوطنية

●●●

أغانى وطنية رائعة.. ولكن

الحديث عن النكسة التى منيت بها الأغنية الوطنية بعد رحيل سيد درويش وحتى قيام ثورة يوليو، لا يعنى تقليلا من شأن أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب. أم كلثوم هى تاج الموسيقى والغناء العربى ودرته الخالدة فى كل تاريخه وإلى مستقبل يعلمه الله. وعبدالوهاب هو هذا الموسيقار العبقرى الفذ الذى يدين له الغناء العربى والموسيقى العربية بالفضل الأكبر فيما شهده من تطور ونهضة على امتداد مايزيد عن سبعين عاما.

كل ما فى الأمر اننا عندما نتحدث عن هذه القضية المحددة، قضية تطور الأغنية الوطنية وما انتهت اليه من أزمة اليوم، فان حقائق يجب ان تذكر. وهى على اية حال حقائق أصبحت جزءا من التاريخ بالفعل.

وكما اشرت سابقا، كان لأم كلثوم وعبدالوهاب اغانى وطنية رائعة فى تلك الفترة.

بالنسبة لأم كلثوم، غنت فى فيلم" نشيد الأمل" عام ٣٦، أغنية" ياشباب النيل" التى قال فيها أحمد رامي:

ياشباب النيل... ياعماد الجيل

هذه مصر تناديكم فلبوا... دعوة الداعى إلى القصد النبيل

وعندما تاسست الجامعة العربية،وأحيت حفلا لمندوبى الدول العربية، غنت قصيدة عن العروبة، جاء فيها:

زهر الربيع أم سادة نجب... وروضة اينعت أم حفلة عجب

وهى القصيدة التى اقتبس الشاعر فى نهايتها هذا البيت الرائع من شعر حافظ ابراهيم:

هذى يدى عن بنى مصر تصافحكم... فصافحوها تصافح نفسها العرب

وبعد ذلك، غنت أم كلثوم قصيدة" النيل" لأحمد شوقى التى قال فيها:

من أى عهد فى القرى تتدفق... وبأى كف فى المدائن تغدق

وقبل ثورة يوليو بفترة وجيزة، تغنت أم كلثوم برائعة السنباطى وحافظ ابراهيم:

وقف الخلق ينظرون جميعا... كيف أبنى قواعد المجد وحدي

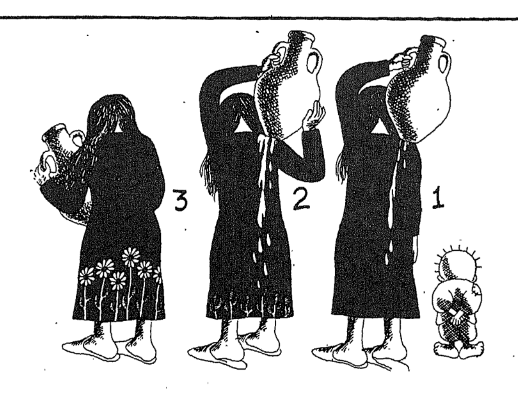
أما عبدالوهاب، فقد غنى فى عام٣٣، أغنيته الجميلة: حب الوطن فرض علي... أفديه بروحى وعني. وفى ٣٦، غنى" أيها النيل". وغني" نشيد الجهاد" فى ٤١. وغنى فى ٤٣" أنشودة دمشق" و" مين زيك عندى يا خضرة". وفى عام ٤٤، غني" مصر نادتنا". و" إلام الخلف" فى ٤٥.

وقد أحصى فيكتور سحاب على وجه التحديد ١١ أغنية وطنية لعبدالوهاب فى تلك الفترة.

ومن الممكن أن نضيف أغانى مثل" على بلد المحبوب وديني" وأغنية" القطن" فى فيلم "عايدة" لأم كلثوم، ومثل" الكرنك" لعبدالوهاب فى عداد الأغانى الوطنية.

كل هذه الأغانى هى كما نرى أغانى جميلة ورائعة. ولكن هناك ملاحظات أساسية يمكن ابداؤها على هذه الأغانى لعل أهمها ما يلي:

أولا: أنه كما أشرت سابقا، غاب عن هذه الأغانى غيابا كاملا تقريبا البعد



الاجتماعى من زاوية حال الطبقات الفقيرة المطحونة فى المجتمع وهمومها. بالطبع تتضح فداحة هذا الغياب اذا تذكرنا التراث الهائل لسيد درويش فى هذا المجال والذى ابدعه فى نحو خمس سنوات فقط.

ثانيا: أننا لا نكاد نعثر على أغنيات تواكب الحركة الوطنية وتتفاعل مع تطوراتها وأحداثها العاصفة فى تلك الفترة. من الملفت مثلا فى هذا الصدد أننا لم نقرأ أو نسمع أن المظاهرات الصاخبة التى شهدتها الأربعينيات، كان المتظاهرون فيها يرددون أغنية أو مقطعا من أغنية لأم كلثوم أو عبدالوهاب مثلما كان الحال فى ثورة ١٩ عندما كان المتظاهرون يرددون أغانى سيد درويش.

ثالثا: وهذه هى الملحوظة الأساسية، أن المعانى الوطنية التى تعبر عنها هذه الأغانى هى معانى عامة أشد ما تكون العمومية، لا تعبر عن مواقف محددة، أو تدعو لمواقف محددة. . لماذا؟.

السبب هو أن الأغانى الوطنية لأم كلثوم وعبدالوهاب فى ذلك الوقت كانت محكومة باعتبار اساسى هو ألاتغضب النظام، أو تثير رفضه أو ***تحفظه***.

نص مسرحى

رحلة سلام

ريم حسن محمد شحاتة
الصف الثانى الإعدادى

الفصل الأول

(المشهد الأول)

صالة فندق كبير فى القاهرة مليئة بالزوار نزلاء الفندق فى جانب واحد هناك مجموعة من الشباب والفتيات يدخل الصالة رجل ذو هيبة ووقار معه سجل.

الرجل: أنا الأستاذ آدم مندوب وزارة السياحة ومشرف على الرحلة وكلكم تعلمون أنها جائزة نظمتها وزارة السياحة عبر شبكة الانترنت لجميع دول العالم وأنتم يا شباب من فزتم بها وهى عبارة عن زيارة لجميع مناطق مصر السياحية وسوف نبدأ بزيارة الأقصر وأسوان وعلى كل منكم أن يقوم بتعريف نفسه للآخرين وأمامكم ساعتان للاستعداد لبدء الرحلة.

(الشباب يجلسون)

خالد: هيا يا شباب سأبدأ بتعريف نفسى، أنا خالد عبد العزيز من مصر بلدى والحمد لله جميلة وهادئة وتعيش فى سلام والحمد لله وعندى ١٧ عاماً.

أميرة: أنا أميرة مدحت من مصر عندى ١٥ عاماً وبلدى عرفها خالد.

جاك: أنا چاك جيلفسكون من الولايات المتحدة الأمريكية عندى ١٧ عاماً وبلدى تعرفونها جيدا.

ألبرت: أنا ألبرت تشارلى عندى ١٦ عاماً وبلدى انجلترا.

بسام: أنا بسام محمد من سوريا عندى ١٨ عاماً.

ليزا: أنا ليزا فرانسوا عندى ١٩ عاماً وبلدى فرنسا.

سيجاندو: أنا سيجاندو ارتوزو من أسبانيا عندى ٢٠ عاما

كيكو: أنا كيكو تايجونو من اليابان عندى ١٩ عاماً.

جود: أنا جود سبيد من ألمانيا عمرى ١٦ عاماً.

عبد العزيز: أنا عبد العزيز الأحمدى من السعودية عندى ٢١ عاماً.

جون: جون بيرك من روسيا عمرى ٢٢ عاماً.

هالة: هالة محمود من اليمن عندى ١٧ عاماً.

ياسين: أنا ياسين شاكر من فلسطين عندى ١٥ عاماً.

يارو: أنا يارو مابيكن من جنوب إفريقيا عندى ١٨ عاماً.

خالد وأميرة: أهلاً بكم فى أجمل البلاد بلدنا العزيزة مصر.

●●●

المشهد الثانى

(أتوبيس ضخم به مجموعة من الشباب العرب والأجانب فى طريقهم إلى مدينة الأقصر، چاك يضاحك أميرة).

جاك: أهلا أيتها الحورية السمراء

أميرة: ماذا تريد يا جاك؟

جاك: لقد خطفنى جمالك أيتها الحورية السمراء.

أميرة (ضاحكة): أنت عندك قدرة على الكلام لم أر مثلها .

چاك (ضاحكا): ما رأيك فى أن نصبح أصدقاء.

(رآهم خالد)

خالدا (غاضبا): ماذا تفعل يا فتى؟

جاك: وما شأنك أنت؟

خالد: أميرة ابتعدى من هنا .

جاك: ابتعد عن أميرة واتركها .

أميرة: خالد لو سمحت ابتعد عنى واتركنى وشأنى.

خالد: قلت لك ابتعدى يا أميرة وإلا صفعتك على وجهك.

چاك: أنا الذى سأضربك إن لم تبتعد عنا وتتركنا وشأننا .

خالد: (وقد اشتعل غضبا): تذكر جيدا يا فتى أنك أنت من طلب ذلك

(صفع خالد چاك على وجهه وبدأ فى الشجان)

المشرف: ماذا تفعلان؟ توقفا..

خالد: لقد حاول مضايقة أميرة يا سيدي.

چاك: لا تصدقه يا سيدى أنا وأميرة نتعامل كزميلين.

خالد: بأى حق تريد أن تكون زميلها .

المشرف: توقفا أنتما الاثنان، چاك لا تحاول مضايقة أى فتاة مرة ثانية وأنت يا خالد إذا فعل شيئاً تعال وقل لى ولكن لا تضربه.

(رجع كل فرد إلى مكانه)

●●●

المشهد الثالث

(فى بهو الفندق والشباب ينتظرون أرقام غرفهم)

المشرف: أهلا بكم فى مدينة الأقصر أمامكم ثلاث ساعات للراحة ثم يبدأ برنامج الرحلة أرقام غرفكم عند موظف الاستقبال.

أميرة (هامسة لخالد): خالد اسمعنى جيدا لا تحاول أن تكون ولى أمرى وأن تحاسبنى على أفعالى وأتركنى فى حالى ولا تتعرض لي.

خالد: أميرة أنا أحاول أن أحافظ عليك

أميرة: أنا لا أريد منك ذلك

خالد: أنت صديقتى وأعاملك كأنك أختى ومن حقك على أن أحافظ عليك من أى حقير يريد أن يتعرض لك

أميرة: وأنا لم أطالبك بهذا الحق وإذا تعرضت لچاك لن نصبح أصدقاء.

خالد: إذا رأيتك مع ذلك الحقير بالذات سأولعنكما ضربا.

أميرة: لماذا تكره چاك بالذات يا خالد.

خالد: لا أظنك جاهلة أو غيرمتعلمة حتى لا تعلمى ما يفعله الأجانب بالعرب.

أميرة: آه.. الآن عرفت سبب كرهك لچاك هو ما فعله الأمريكيون بالمراسلين الصحفيين فى فندق فلسطين ومن بينهم أمك.

خالد: لا تتكلمى عن أمى.

أميرة: اسمعنى يا خالد چاك ليس له ذنب فى ذلك بل إنه يعانى من نفس الجرح فأبوه جندى أمريكى قتل أيضا على أيدى العراقيين.

خالد: ماذا تقولين؟

أميرة: أفهمنى يا خالد أنت أعز أصدقائى چاك فتى مهذب كان يريد أن يكون صديقاً وما كان يقوله لى ويفعله معى ليس أكثر من السخرية والضحك أرجوك يا خالد فكر فى كلامى جيدا.

(المشهد الرابع)

(يقف خالد أمام معبد هابوو ويبدو عليه أنه ينتظر أحداً، رأى چاك فنادى عليه).

خالد: چاك .: چاك.. انتظر

چاك: ماذا تريد؟ ألم يعجبك ضربى فى المرة الأولى وتريد أن تضربنى مرة ثانية.

خالد: لا .. أريد أن اتحدث معك قليلا.

چاك: تفضل ماذا تريد أن تقول؟

خالد: قل لى ماذا تريد من أميرة؟

چاك: أميرة هل تحبها يا خالد.

خالد: لا .. ولكنها صديقتى وأختى وأيضا جارتى وأريد أن أحافظ عليها.

چاك: لا تخش شيئاً فأنا لا أريد منها سوى أن تكون صديقة لى تخفف عنى غربتى.

خالد: لقد أرحتني.. چاك أريد أن أسألك سؤالاً أخيراً.

چاك: هيا قل ما هو؟

خالد: ما هى نظرتك وفكرتك عن العرب؟

چاك: أنا لم أكن أكرههم ولكن بعد أن عرفت أنهم ليسوا مجرد إلا أشخاص مخادعين كرهتهم.

خالد: (غاضبا): وفيما خدعوك يا حضرة الأستاذ؟

چاك: ألم تطلبوا مساعدتنا وبعدما ساعدناكم قتلتمونا.

خالد: نحن لم نخدعكم ولن نطلب المساعدة منكم بل أنتم الذين خدعتكم أنفسكم.

چاك: ماذا تقول؟

خالد: أقول إننا شعب مسالم لا يحب الحرب وأنتم الذين يبهركم منظر الحرب ويروق لكم منظر الدماء وتعشقون مناظر الدمار.

چاك: أرجوك يا خالد لا تقل ذلك.

خالد: أليست هذه هى الحقيقة؟

چاك: «باكيا» لا: نحن لا نعلم شيئاً من هذا نحن نظن أنكم شعبا غير متحضر وهمجى ولا يعلم شيئا عن المدنية.

خالد: لقد أضحكتني.. لا تعرفون شيئا كيف؟؟

چاك: صدقنى أنت لا تعلم ماذا حدث لي.

خالد: ماذا يا شعب المآسى (سخرية)

چاك: لا تسخر منى أرجوك لقد دمرتنى الحرب بل دمرت أسرتى بكاملها. أخذ أبى من بيننا فى يوم وليلة دون أن نعلم لهذا سبباً، كل ما قاله لنا إننى سوف أعود بسرعة. إننى سوف أشارك فى نجدة شعب بكامله والشعب هو من طلب منا هذا.

وقيل لنا إن هذا الشعب سوف يقابل أبى ومن معه بالورود ويالها من ورود.

وبعد فترة ليست بطويلة جاءنا من يخبرنا بوفاة أبى داخل تلك البلاد التى ذهب لنجدتها.

خالد: آه .. آه.. آه يا چاك لقد شربنا من نفس الكأس وتجرعنا منه كثيرا فذهبت أمى مراسلة صحيفة فى هذا المكان أيضا وقد لاقت نفس المصير دون أن أعرف السبب حتى الآن وكل ذنبها أنها ذهبت لتؤدى عملها بأمانة وإخلاص.

(شرع الاثنان فى البكاء أخذ خالد چاك بين أحضانه وهو يبكى).



الفصل الثانى

(المشهد الأول)

(أتوبيس يحمل نفس الطلاب متجهه لمحافظة أسوان ومنها لتوشكى)

(شاشة تليفزيون ويشاهدها الطلاب)

مذيع التليفزيون: مقتل أربعة أشخاص عراقيين على أيدى قوات التحالف.

خالد (غاضبا): أرجوك يا جود غير القناة

مذيع آخر: انفجار فى رام الله.

خالد (وقد اشتعل غضباً): إلى أى مدى ستظل الكرة الأرضية كتلة ملتهبة من الدمار والحرب، إلى أى مدى سيظل ملايين من البشر يعانون من ويلات الحروب، لقد تعبنا، أين السلام؟

- **ياسين (باكيا):** هذا منظر واحد يا خالد فما بالك بنا ونحن نرى أبشع من هذا

كل ساعة وكل يوم؟

سيجاندو: إلى أن يصبح البشر كلهم يحبون بعضهم، ويجتمعون على كلمة السلام فالسلام والأمن والاستقرار فى العالم مسئولية جماعية وليست مسئولية فردية تتبناها دولة وحدها.

خالد: آه.. آه يا سيجاندو، لو كل ما تقوله تحقق ستصبح الكرة الأرضية كأنها جزءاً من الجنة.

أميرة: أرجوكم كفي.. كفى وانتبهوا إلى إننا قد وصلنا.

چاك: إذن هيا بنا.

●●●

المشهد الثاني

(محطة الرفع بتوشكى على منصة المشاهدة فى البحيرة العملاقة)

چاك: أيعجبك المنظر يا خالد.

خالد: بل يبهرنى ، ترى هل البحيرة عميقة جداً؟؟!!

چاك: بالطبع يا خالد .. احذر.

خالد: ياه إنها عميقة جداً بالفعل (يقول هذا وهو ينزل رأسه لأسفل)

(يفقد توازنه ويهتز ويكاد أن يقع، چاك يمسك به)

چاك:.. احذر.

خالد: آه .. چاك شكراً لك لقد أنقذت حياتى، أنا لا أعرف السباحة.

چاك: أقولها لك للمرة الألف. أحذر يا خالد ولا تكن متهوراً.

أميرة: ما بكما؟ ماذا حدث؟

چاك: لا شيء.

(خالد ينظر إلى چاك مندهشا)

چاك (هامساً لخالد): لا تقل لأحد عن الذى حدث.

خالد (مندهشاً): أنا آسف على ما فعلته من قبل، أنت إنسان عظيم.

چاك (مبتسما): شكراً يا صديقي.

●●●

المشهد الثالث

(الشباب على الدراجات يتسابقون)

چاك: هذا مثير جداً.

خالد: احذر.. لا تقد بتهور يا چاك.

چاك: لا تخف عليّ أنا بطل العالم فى سباق الدراجات.

(فجأة جاءت سيارة مسرعة صدمت چاك أثناء انشغاله بالحديث مع خالد)

خالد وبسام (يصرخون): چااااااك.

ستار

الفصل الثالث

(المشهد الأول)

(فى المستشفى طلاب ومعهم مشرف فى غرفة الانتظار، دخل الطبيب)

الطبيب: هذا الفتى فصيلة دمه نادرة جداً، هل أحد منكم مستعد للتحليل والتبرع.

خالد: أنا مستعد يا دكتور.

(قام الطبيب بأخذ عينة من دم خالد)

(بعد الفحص)

الطبيب: الحمد لله إنها من نفس الفصيلة.

خالد: هيا خذ ما تحتاجه.

(أخذ الطبيب كمية الدم)

(وقف خالد وهو يترنح)

الطبيب: ما بك يا خالد؟

خالد: لا شيء.

الطبيب: لا تعاند يا خالد وقل ما بك؟

خالد: أشعر بدوار خفيف.

(وقع خالد على الأرض فاقدا الوعى)

المشرف (منزعجا): ما به يا دكتور؟

الطبيب: يبدو أنه يعانى من أنيميا، وكمية الدم التى أخذناها منه أثرت عليه، سأضعه فى الحجرة وآمر الممرضة أن تضع له المحاليل.

(أخذ الطبيب والممرضة خالداً إلى غرفة چاك)



(المشهد الثاني)

(الطبيب يضع لچاك كمية الدم ويعلق له المحلول، أفاق چاك)

چاك: ماذا جرى لخالد؟

الطبيب: يبدو أنكما صديقان حميمان فقد تبرع لك بكمية كبيرة من الدم أدت إلى فقدانه الوعي، وحمدا لله على سلامتك.

(أفاق خالد ونظر حوله)

چاك: حمداً لله على سلامتك.

خالد: حمداً لله على سلامتك أنت يا بطل.

چاك: شكراً لأنك تبرعت لى بدمك.

خالد: لا تشكرني، أنت أنقذت حياتى.

چاك: أتدرى الآن أن دمنا أصبح واحداً.

خالد: نعم دم جنس واحد ..الجنس الآدمي.

چاك: لو لم يكن بيننا حب وسلام لم نكن لنفعل ذلك.

خالد: لو لم يكن بيننا حب وسلام لكنا متنا نحن الاثنين.

چاك: نعم هذه هى أهمية الحب والسلام فى حياتنا.

خالد: إنه يحفظ لنا حياتنا وأمننا ومستقبلنا.

چاك: ماذا أعطت لنا الحرب بجانب ما أعطاه لنا السلام.

خالد: حلمى أن يكون من حق الطفل وهو فى رحم أمه أن يحلم بسلام.

چاك: يا ليت البشر يصبحون مثلنا.

(تعلو الضحكة شفاههم)



المشهد الثالث

(الشباب فى بهو فندق بالقاهرة وقد شفى خالد وچاك)

خالد: ما رأيكم فى فكرة مجنونة.

چاك وجود: أسرع ما هى؟

بسام: أرجوك يا خالد كفاك أفكاراً مجنونة.

هالة: لا. نحن نحب أفكار خالد.

سيجاندو: أرجوك يا خالد لقد وعدت أمى أن أعود لها سالماً.

خالد: انتظروا .. انتظروا إننا لن نطير بمنطاد، أو نرمى أنفسنا فى نار، ونقول فكرة مجنونة.

ألبرت: إذن ماذا تكون هذه الفكرة المجنونة؟

خالد: إننا سنقوم بعمل أوبريت عن السلام، وكل واحد يغنى بلغة بلده.

ياسين وليزا وجون: إنها فكرة جيدة.

(قام خالد بالتنظيم، وقاموا بعمل أوبريت)

رحلة السلام

كتاب

جيوب مثقلة بالحجارة والألم

عالية ممدوح

الشاعرة المصرية فاطمة ناعوت مهندسة معمارية أيضاً ومترجمة عن الانجليزية، انطولوجي شعرى «مشجوج بفأس» عن سلسلة آفاق عالمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة. ثم انطولوجي قصصى عن دار شرقيات «قتل الأرانب». لها أربعة دواوين شعرية «نقرة أصبع» و«على بعد سنتيمتر واحد من الأرض» و«قطاع طولى فى الذاكرة» و«فوق كتف امرأة».

منذ إطلالتها الأولى أتابعها وقصائدها التى تنقض عليك وتكشط قشرتك وأقنعتك. فى عموم ما قرأت لها كان للهندسة اقتراحات فاتنة فى وحشة وحرقة أسئلتها، كأنها تري، أن ما نراه أمامنا من بشر ومعمار بشع كالفضيحة، هو الذى يسرق حياتنا فكانت تنتظر الصاعقة من القصيدة، قصيدتها لكن كما يبدو أن شعرها لم يكفها وكأن هناك احتمال فقده وسط كل هذا الخراب من حولنا . فكانت تذهب إلى اختيارات وتقاطعات فنية ووجودية ما بين التراجم والكتابة، ما بين ذاك الذى لا يعوض، الشعر، وذاك الذى يغرى بالمجازفة، الهندسة المعمارية والترجمة. وهذا ما يعلن جليا عن اختياراتها على الخصوص فى هذا الكتاب الجميل والمعذب الذى

لا يكف عن الاشتباك فى الروح عن وحول الكاتبة الذائعة الصيت فرجينيا وولف فتختار اقصوصة لم تترجم إلى العربية: «رواية لم تكتب بعد» مع عرض تاريخى وثقافى ونقدى وحوار متخيل مع وولف فى ختام الكتاب. هذا الكتاب راجعه الدكتور ماهر شفيق فريد أستاذها وهو ناقد ومترجم وكاتب قصة قصيرة وأستاذ الأدب الانجليزى بكلية الآداب جامعة القاهرة. نعم، إن لدى إفراطاً فى حبى وإعجابى بفرجينيا وولف . حين كنا نعيش فى مدينة برايتون فى انجلترا فى الثمانينيات، اصطحبنى ابنى إلى نهر أووز الواقع بالقرب من دار سكنى وولف ببلدة سيكس، حيث أثقلت جيوبها بأنواع من الحصى والحجارة، سارت فى مجرى ذلك النهر حتى اختفت قامتها الطويلة: كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحاً ومعها عصا التجوال.

عبرت المرج الذى يفصل بيتها عن النهر ثم توارت فى ذلك النهر تماما، كان ذلك فى اليوم الثامن والعشرين من شهر مارس فى العام ١٩٤١ الكتاب مترجم بالطبع وبه مختارات ذكية وشجاعة، فالشاعرة فاطمة ناعوت ونحن القراء كنا نرصد معها تلك الرحلة القاتلة لقامة أدبية وفكرية بصمت بدايات القرن العشرين وحتى اليوم بجوار جويس وبروست. فاطمة ناعوت ذكرتنى وجعلتنى استدعى جميع المراثى منذ اليونان وحتى اليوم فى تلك الميتة المرعبة. كانت تتابع كتابات المؤلفة وولف ثم تعرف بها وبشخصيتها المريضة ذات الوقائع العصابية والصدامية لجميع من حولها (أفراد عائلتها وزوجها).

إن المتتبع لحياة ومؤلفات وولف يتوجب عليه اكتشاف أن الكاتبة كانت تهدئ عذاب انتظارها للموت باستعجاله لكنها لم تفلح. لقد كان الفقد والهجر طراز حياتها، أوله الأم، ثم الوالد باحتضاره البطئ ثم موت الشقيق المحبوب بحمى التيفوئيد بعد رحلة إلى أوربا.

وولف سيدة كان الحزن أثقل من جميع جبال العالم فى وجودها، يثقل صدرها وروحها. لم تعد تمتلك قوى لكى تقاوم ما سببته الحربان الأولى والثانية فى ذاتها لقد ظلت وولف تتصور أن الموت مكشوف أمامها والرعب ظل يحاصرها فيما إذا فقدت

أصدقاء جدد فى الحرب الثانية بعد ما فقدت أغلبهم فى الحرب الأولى. «فعقدت العزم وزوجها على الانتحار معًا بالغاز حال حدوث ذلك، الحرب الثانية». فزوجها يهودى وكانت تخشى من وصول النازيين إلى انجلترا. فى الحرب الأولى قتل جوليان بيل. ابن شقيقتها. إن ترويع الحروب هو أحد العوامل الأساسية التى رجت جهازها العصبي. بدأ مرضها العقلى وهى فى الرابعة والعشرين.

جل حياتها مبثوثة فى أعمالها بهذا الشكل أو ذاك. ففى رواية «الخروج فى رحلة بحرية» تحكى قصة «العشاق التعسين المنهزمين»؛ فى رواية السيدة دالوى الشهيرة الصادرة فى العام ١٩٢٥ كانت تحمل ذلك السؤال الجهنمى «عما إذا كان هناك هدف وخطة وراء حياتنا؟ لماذا نستمر فى الحياة فى وجه الألم والمأساة؟» فى رواية «صوب المنارة» جعلت والدتها الشخصية المركزية فيها.

أما رواية «أورلاندو» ١٩٢٤ فهى «رواية فنتازية يتتبع السرد فيها مصير البطل الذى تحول من هوية ذكورية إلى الهوية المؤنثة» أما رواية «الأمواج» فهى «تعد من أعقد رواياتها وإذ نتبع فيها حيوات ستة أشخاص منذ الطفولة وحتى مراحل الشيخوخة عبر حوار ذاتى أحادي، مونولوج يناجى كل واحد نفسه» كتب أحد النقاد فى نيويورك تايمز: «إن وولف لم تكن حقا مهتمة بالبشر لكن اهتمامها الأكبر كان بالإشارات الشعرية فى الحياة».

أما كتابها النفيس: «غرفة خاصة للمرء» فقد كان ومازال مانفيستو لقضايا المرأة التى كانت وولف ترى أن الغبن والظلم والإذلال قد طالها هى شخصيا حين ذهب إخوتها إلى المدرسة وبقيت الفتيات يتلقين علومهن بالبيت. كتاب الغرفة كان فى الأصل محاضرة أطلقت فيها وولف مقولتها الشهيرة: «إن النساء لكى يكتبن بحاجة إلى دخل مادى خاص بهن وإلى غرفة مستقلة ينعزلن فيها للكتابة».

تحلل وولف جميع تلك المعوقات والصعوبات التى تعترض تطور مشروع المرأة الأدبى والثقافي، بين المرأة بوصفها «شيئا أو موضوعا» يمكن الكتابة عنها «كمؤلف أو كمبدع». معظم المنجز الأدبى كتبه رجال انطلاقا من احتياجاتهم الشخصية ومن أجل استهلاكهم الشخصي. ثم استشهدت وولف بمقولة كولريدج: «العقل العظيم هو عقل

لا يحمل نوعا فإذا ما تم هذا الانصهار النوعى يغدو العقل فى ذروة خصوبته ويشحذ جميع طاقاته».

كنت ومازلت أجمع كل ما يقع بين يدى وبصرى عن هذه الكاتبة، اقتنيت يومياتها وحاولت ترجمة أجزاء منها من أجلى. لها ركن خاص فى مكتبتي، ولها أغلب الخانات فى رأسى كنت أشاهد صورتها الشهيرة التى ظلت تنشر وتواصل النشر. صورتها هذه الجانبية ذات النبالة المترددة، التى لم تعرض فى تلك الصورة إلا حزنا شفيفا منثورا كالماس والذهب أو مزيجا من الاثنين وهى تختفى داخل فزعها وهلعها من الوجود ذاته.

وولف لا تشعر بالحياة ولا تستحضرها إلا باعتبارها جلبة عكس صورها الساكنة كصفحة بحيرة ساكنة. إن وسواس الموت كان قائماً فى أعماق جميع آثارها الأدبية، به تتخلص من ورطة الحياة وبه أيضا تحاول أن تشاهد شيئاً من صلابتها كما كانت تتصور فى رواية الأمواج: «فلنحاول أن نعتقد بأن الحياة شيء صلب، كرة نستطيع أن نجعلها تدور تحت أصابعنا. لنحاول أن نعتقد أن بإمكاننا أن نجعل منها حكاية يسيرة منطقية تنتهى بالحب مثلا» قبل ذهابها إلى النهر وهى مليئة الجيوب بالأحجار كتبت رسالتين، الأولى إلى شقيقتها الرسامة فينسيت بيل، وفيما بعد إلى زوجها، قالت له: «لقد وهبتنى أعظم سعادة ممكنة. كنت دائما لى كل ما يمكن أن يكونه المرء. لا أظن أن ثمة زوجين حصلا ما حصلناه من سعادة، إلى أن ظهر هذا المرض اللعين لقد كافحت طويلا ولم يعد لدى المزيد من المقاومة. أعرف أننى أفسدت حياتك. لقد كنت صبوراً إلى حد وطيبا على نحو لا يصدق. إذا كان ثمة من أنقذنى فقد كان أنت».

فى برايتون يوم ٢١ إبريل تم إحراق الجثمان فى عزلة وصمت ثم نثر رماده تحت إحدى شجرتى الدردار حول منزلها كنت أسير فى شوارع برايتون وقتذاك، أطل على ذلك السياج واتتبع خطى سير ذاك الرماد. بين الأوراق، أوراقها وأوراقى كنت استدير ونبرة صوتى تختنق وجميع ترددات القلب كانت تذهب إلى النواح، لا أحيد عنها لكننى أعود تقريبا دوريا إلى مؤلفاتها، إليها، إلى صورها ويومياتها ورسائلها،



إلى ذلك الكتاب الضخم الذى ألفه ابن شقيقتها - كوينتين بيل - الذى حاول أن يفند الشائعات أو يبطل بعض الفضائح التى رافقت وجودها.

لم أفضل تلك الطرق والأساليب فى التخلص مما علق من شوائب فى روح وثياب وصيت فرجينيا وولف، فالسؤال هو: ألا تشكل كل هذه الشوائب والأعاجيب التى عاشتها شخصيتها الحقيقية ونزواتها العاطفية والجنسية وتلاطمها بتلك الأمواج التى كسرتها ولم تتوقف عن التلاطم إلى ما شاء الله، ألا تشكل جميع إرث فرجينيا وولف وإرثنا معها؟

ثقافة المعارض الفنية

كمال الدين عيد

مدخل

فى العصر الحديث لا يظن أحد أن معارض الفن التشكيلى بعيدة عن تعبير أو مضمون الثقافة. فبعد انبثاق مصطلح الثقافة الوظيفية العملية - والمنتشر بخاصة فى فنون العمارة - تحديدا فى النصف الثانى من القرن العشرين، قام جسر جديد بين الثقافة والفنون التشكيلية لتحقيق المذهب العملى الانتفاعى بين فنان يبدع ومشاهد لمعرض تشكيلي.

عملت المنهجية العلمية على تحديد قياسات لمعارض الفنون، عرفت بالقياسات العلمية الثقافية بعد أن كانت المعارض تقام فى السابق دون النظر إلى مثل هذه المسارات العلمية. وكان من نتيجة التقدم العلمى - والثقافى أيضاً - أن البحوث فى هذا المجال خرجت على العالم بالأسس اللازمة لمعارض الفنون، بما أكد العلاقة الوثيقة المعاصرة

بين الثقافة الوظيفية وهذه المعارض. فإذا كان الإعلام فى وظيفته الأساسية هو أداة اتصال من خلال العلاقات العامة أو الإذاعة أو التلفزيون أو الصحافة أو المسرح، فأن المعارض الفنية أداة أتصال لأنها عرض، ثم استقبال ثم فهم ذو بعد ثالث، على اعتبار أن وسائل الاتصال فى الإعلام لا تتمتع إلا ببعدين اثنين هما العرض والاستقبال.

وبعيدا عن التاريخية، فأن أول معرض تشكيلى فى العالم هو الذى أقامه الفرعون بطليموس فيلوميتر فى القرن الثانى قبل الميلاد بمناسبة زواج أخته الكبرى كليوباترا، والذى عرض أعمالا فنية من فنون ممفيس وطيبة.

علاقات أساسية (الفضاء، الزمان، الحركة)

من نافلة القول إن القطعة الفنية فى أى معرض تشكيلى فى بعدها الاتصالى الثالث إنما تنشأ نتيجة أسباب جسمانية فيزيكية، باعتبارها تجسيدا لموضوع أو لفكرة تخاطب العين والأحاسيس الداخلية للمشاهد لتفعل بمضمونها الفنى خطوات تجاه التأثير. فعبر علاقة العناصر الثلاثة الفضاء، والزمان والحركة يتكون الاتصال ذو الأبعاد الثلاثة. فليست المشاهدة (الرؤيا) أو الاستماع إلى موسيقى مصاحبة أحيانا فى المعرض التشكيلى هما كل شىء. لأن الحضور الفعلى للمشاهد، ووجها لوجه مع الفن المعروض يحقق موثوقية الأتصال (هذا إذا نجح المعرض بقطعه الفنية فى التأثير وإيصال المشاهد إلى لحظة التكيفية.

وإذن، فأن التكوين العقلى للمشاهد يكون جزءاً من هذا الاتصال. عادة ما يكون المشاهد فى حركة.. يأتى إلى صالة المعرض ثم ينصرف، وكل هذا يحدث فى الفضاء وفى زمن معين. وهما كالأشابة (خليط من معدنين يتمازجان مع الحركة) لتقترب جميعاً من الأفكار التى يحملها المعرض وما يهدف إليه من فن وثقافة.

ولجمهور المعارض محرك للزمن يبدأ مع الموضوع، ثم الإعلام بالأفكار كنهاية للزمن. لكن البداية والنهاية تتوسطهما المادة التشكيلية والمبنى (صالة العرض) وما يعتريهما ويتداخل معهما من أحاسيس. وعلى ذلك، فإن حقيقة الزمن – من ناحية طوله أو

اتساعه - تضيف بعدا رابعا إلى فعل الأتصال، يتجلى فى سرعة حركة المشاهد من بطئها، أو فى وقوفه متمعنا أمام لوحة أو قطعة فنية، أو المرور عليها مر الكرام.
يشير علم (تصميم المعارض) إلى ضرورة الفصل بين كل من الإحساس والفهم. فهما مرحلتان تتبع الثانية فيهما الأولى ولا تحدثان فى زمن واحد. مرحلة الإحساس ذاتية موضوعية تدرك بالحواس، بينما مرحلة الفهم تستند على التعليم والثقافة والعقل. لكنهما يصلان إلى أهداف المعرض وجوهره وما هيته فى النهاية.

بناء المساحة والحركة

المساحة هى الفضاء فى المعرض، وهى الأداة المحددة لمكان المعرض فى المبني. مرت على مدى التاريخ وعصوره بتغيرات واختلافات. ولهذه المساحة وظيفة طقسية من ناحية تأثرها بالنسب المكانية، وقوة التعبير، الريثم الداخلي، تحقيق توليد التأثير، ثم بناء وتشييد (الفهم) للمشاهد على أساس نفسعقلي. كما تظهر عناصر البيئة فى الأشكال والمستويات وكثافة المجموعات والجماهير.
على ذلك تصبح المساحة هى أداة المعرض التى تحقق النتائج تجسيدا عبر تلك المستويات. وكلها إعداد وتحضير قبل افتتاح المعرض تتمحور فى فلسفة المساحة، قوى التعابير المختلفة، نظم الأشكال، نسب المساحات المكانية، تصميم علاقات المعروضات. ومن الصعب الوصول إلى (صيغة فنية متحدة) لكل هذه وتلك إلا بمناقشات مباشرة فى مرحلة الإعداد. وهى هى نفس المساحة التى تؤثر فى فيزيكية المشاهد، وفى وجوده الفسيولوجي. فهو يشعر - أثناء تجواله - بتأثير المساحة على المعروضات وكذلك بحالته المعنوية: هل المعرض مريح؟ أم هو غير مرض؟ مضايق ثقيل الوطأة قابض للصدر؟ أم هو يبعث على الراحة والابتهاج؟ طبيعى أن القطعة الفنية فى المقام الأول ومن بعدها المساحة فى الدرجة الثانية تكونان العلاقة بين المعرض والمشاهد. وساعتها فأن عين المشاهد لا تلاحظ نظام المساحة أو تعيه لأنها تكون منشغلة بالأبعاد والزوايا والعلاقات فى القطعة الفنية، وفى اتصال زمنى.
أما الفهم فأنه يبنى على المعرفة، وعلى استدعاء العقل مكونا فى النهاية الحالة

المزاجية العامة للمشاهد. إن تصميم المعرفة، وتكوين نظام العناصر الفنية، والتوكيد على بعضها دون البعض الآخر، ثم تعاقب لوحات المعرض ومعروضاته في تتابع أو سلسلة متوالية، والعناية بالتأثير المهم للمساحة، كلها تقع جميعها على عاتق مخرج المعرض أو معده، وعلى الوسائل التي يستعملها في المساحة. فبدون التصور والقصد والهدف - العناصر الأساسية لثقافة المعارض الفنية - من الصعب إن لم يكن من المستحيل نجاح المعارض في العصر الحديث. وعلى حد قول أفلاطون «إن الشكل هو حدود الصورة التي يجسدها».

وعلى ما تقدم، فأننا نرى أن نموذج تصميم المساحة في معرض ناجح يتطلب العوامل التالية:

أ - أن يكون النموذج مناسبا لقصد المعرض وأهدافه.

ب - أن يصبح النموذج متناسقا متوازيا مع مخطط البنية الفكرية، بقصد إيجاد علاقة نافعة بين أهداف المعرض ومخططه الفكري. بمعنى أنه إذا أفصحت أو أشارت الأجزاء أو المعروضات إلى علاقة بينها، فإن الإدراك الحسي آنذاك يقود إلى القدرة على الفهم، الذي يساعد على وجود العلاقة الظاهرة، وعلى جعل الأجزاء والمعروضات متناسبة متسقة، وعلى ميلاد الإيقاع اللازم لأئتلاف أجزاء الأثر بعضها ببعض بحيث تؤلف (كلاً فنيا)، وكذا على بروز التركيز اتساعا وضيقا.

المعوقات والعقبات

تتعرض إقامة أي معرض تشكيلي إلى عقبات نوعية، يحسن أن أشير إليها هنا لتفاديها والعمل على الهروب منها. وهي معوقات طبيعية بالنسبة إلى الأعمال الفنية المعروضة.

١ - من الأفضل أن يحسب مهندسو تصميم المعارض الممرات، وطرق الاتجاه إلى المعروضات بحسب الأولويات (بمعنى فيما يريدون نقله إلى الجماهير وحصرها في هذه الأولويات).

٢ - من المفيد أن يراعى مصمم المعرض رغبات الجماهير بالنسبة إلى ترتيبات

الأعمال المعروضة.

٣ – ليس هناك قانون أو تقليد أو حتى عرف يحكم النقطتين السابقتين. لكن تنظيمهما يعود إلى الحس وإلى المعرفة الفنية بنوع هذه المعروضات (لا قاعدة فى الفن).

٤ – كلما كان الحس والمعرفة الفنية قريبان من إدراك المعروضات، تحققت أهداف إقامة المعرض والعكس بالعكس.

٥ – Determination إن التحديد الحاسم فى ترتيب نظام المعروضات وأولياتها لا يعنى القيد أو تقييد المشاهد، بقدر ما يجب أن يكون مساعدة وعونا له للوصول إلى مغزى المعرض والهدف الذى أقيم من أجله. وبدون إيجاد هذا التوازن الدقيق، فإن المعرض لن يحصل فى النهاية على شوق أو انتباه المتفرج، قدر ما يخسر الهدف من اجتذابه وإثارة الفضول لديه.

٦ – أنبه إلى تعارض يكمن فى معارض الفن التشكيلى.

فالمعرض – كأداة خاصة – يتأرجح بين عاملى التصميم المقيد، والصيغة فى الذوق. وأعنى بذلك عدم وجود التصور الواقعي.وهما عاملان هامان لابد لهما من حسابات معقولة ومفهومة. وهذه الحسابات تخرج إلى حيزى الزمان والمكان عندما يحس المشاهد بالراحة والرضا أثناء التجوال فى ممرات المعرض، وساعتها فلن ينشأ عندى أى إحساس خارجى غير طبيعى.

المظهر (الصورة الإنشائية العامة)

ينصح منظرو ومنظمو المعارض العالمية فى دراساتهم ومؤلفاتهم بتسلسل الأشكال فى تصميم المعارض على الوجه التالى:

– الشكل الأول:

وضرورة تركيزه على (وحدة) متناسقة بين الموضوعات للوحات المعروضة أو القطع الفنية، وبين تصنيفها فى مجموعات.

- الشكل الثانى:

يؤكد هذا الشكل القيم العقلية أو الأخلاقية أو المادية فى مجموعة من المعروضات حين توضع - فى المعرض ترتيبا - إلى جانب بعضها البعض ، وكذا فى تسلسل مكانى وزمنى لسنهولة الوصول إلى الهدف العقلى أو الأخلاقى أو المادى عند المشاهد.

- الشكل الثالث:

والوصول إليه يقع على عاتق مهندسى المعرض أو منظم معروضاته. فكلما كان القصد مركزا ومكثفا فى عرض أهميات الجماعات الفنية المعروضة بطريقة موضوعية مجردة عن الغرض، تحقق الريثم الطبيعى للمعرض ودفع التكثيف إلى مصاف عليا.

- الشكل الرابع:

وهو شكل يختص بالتعبير عن الزمن أو الوقت الحقيقى وتعمل ثلاث حقائق فاعلة على تحقيقه. أولاً: كمية المعروضات، وثانياً: عظم التكثيف الذى يخلق زوايا محددة وحدودا فى الفراغ لكل قطعة فنية، ثم ثالثاً: الوقفة أو الموهبة الطبيعية للمشاهد وللزمن الذى يستغرقه أمام قطعة من القطع الفنية.

قصة

البرئ

د. فخرى لبيب

استدعيت للمثول أمام النيابة . استقبلني المحقق مرحبا. حاول أن يضفى جوا مصطنعا من الألفة. قال:

- الشيوعيين الجداد م توصلش معاهم لحاجة. حفظين كلمتين تلاتة يردو بيهم على جميع الأسئلة: معرفش، محصلش، مشفتش. لكن الشيوعيين القدام شجعان ، ناس دوغرى. تقول للواحد فيهم أنت شيوعي. يقولك آه. يدافعوا عن أراءهم، من غير لف أو دوران.

ضحكت بينى وبين نفسي. هذا المحقق يظن أنى شيخ غر. قلت أجاريه:

- والله كلام سيادتك طيب جدا بالنسبة للقدام. بس أنا معرفش الجداد عشان أحكم عليهم.

نظر إلى بعينين تقولان: أول القصيدة كفر. قلب الأوراق أمامه. غير لهجته:

- بس الورق اللى قدامى بيقول غير كده.

تساءلت فى براءة:

- بيقول إيه؟ إن شاء الله خير.

ابتسم متحديا

- بيقول إنك تعرف الجداد كويس قوي. وإنك عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى تمانيه يناير.

قلت مندهشا وأنا أرد له ابتسامته:

- أنا أصلا معرفش حزب اسمه تمانيه يناير.

تساءل بمزيد من الجدية:

● تعرف واحد اسمه توفيق محروس؟

- أيوه أعرفه.

● تعرفه منين؟

- كنا محبوسين سوا خمس سنين.

● آه. تعرف حد اسمه رجائى السمنودي؟

- أعرفه طبعا . كنا محبوسين...

وأكمل هو:

- خمس سنين فى الواحات.

- بالظبط كده.

● تعرف بهجت الدمنهورى؟

- لأ.

● ولا سمعت عنه؟

- ولا سمعت عنه.

● تعرف إيمان يوسف؟

- لأ. ولا سمعت عنه.

ابتسم فى خبث.

- دى واحدة ست، مش واحد.

ثم عاد ينظر فى الأوراق أمامه.

● تعرف كمال حليم؟

وقبل أن أجيب قاطعنى:

- ده شاب بتاع خمسة وعشرين سنة.

قلت مؤكدا:

- اللى أعرفه أنا فى دورى كده أو أكبر كمان. وهوه شاعر.

قال وهو يهز رأسه:

- أيوه، أيوه، بتاع زمان.

- بالظبط كده.

استمر يهز رأسه . سألته:

- وهمه مين دول اللى سيادتك قلت اسماءهم.

وقال وهو ينظر فى عينى:

- زملاتك فى اللجنة المركزية.

قلت مندهشا:

- زملاتى ومعرفهمش.

ظل يهز رأسه.

- احنا مش اتفقنا أن القدام جدعان ودوغرى.

أكدت ما قال:

- تمام. بس سيادتك عاوزنى اعترف على ناس أنا معرفهمش عشان ابقه جدع!

واصل هز رأسه.

- عموما هنتقابل تاني. بس وقع ع المحضر

قلت:

- بس قبل م وقع على المحضر أحب أسجل إنه قبض على دون أمر قبض أو تفتيش وبالتالى فكل الإجراءات الجارية باطلة.

قال فى ضيق:

● وإن ما سجلتش؟

قلت:

- أسف مش هوقع ع المحضر.

قال للكاتب سجل. سجل الكاتب فوقعت على المحضر وانصرفت إلى ليمان طره.

●●●

قضيت يومين أفكر فى عمق. أقلب الأمر على وجوهه . أنا حقا لست عضوا فى هذا الحزب . ما الذى جعلهم يربطون بينى وبينه؟ إننى لا أعرف أحدا من المقبوض عليهم، غير من قلت أنى أعرفه. هل يصل التلفيق إلى هذا الحد؟

غير أن هواجسى تفاقمت عندما استدعيت مرة أخرى إلى التحقيق. لقد قال المحقق إننا سوف نلتقى مرة أخري. كان يهدد . وها نحن نوشك أن نلتقي.

عندما دخلت عليه فى حجرته، وقف مسلما، قال:

- أهلا برجنيف مصر.

أحسست بضيق شديد. قلت:

- أنا مصرى. ومش برجنيف على أى حال من الأحوال.

قال فى تباسط:

- بلاش تواضع يا راجل.

سألته:

● سيادتك عاوز تقول إيه بالظبط؟

قال فى جديه:

- دلوقت تعرف.

جلست. سألنى إن كنت أرغب فى فنجان قهوة أو كوب شاي. قلت إننى لا أشرب هذا ولا ذاك. قال:

- كويس.نبتدي.

فتح الكاتب المحضر. أحسست بالتوتر.

● أنت متهم بأنك السكرتير العام للحزب الشيوعى تمانية يناير؟

فوجئت . فضحكت.

- من يومين كنت عضو لجنة مركزية، النهاردة بقيت السكرتير العام. ترقية خرافية

فى زمن قياسي.

قال:

- لم تجب عن سؤالى!

قلت:

أنا عاوز أعرف، الترقية دى عشان أنا أكبر المحبوسين سنا؟! أو أنى أقدمهم تاريخا؟ ولا الاثنين سوا؟ وإيه اللى استجد من أول أول امبارح للنهارده؟

قال وكيل النيابة:

● تحريات جديدة. ومع ذلك أنت م جوبتش على سؤالى؟ ما ردك على ما هو منسوب إليك؟

قلت صادقا:

- شوف سيادتك، إن أنا أكون السكرتير العام لحزب شيوعى مصري، فهذا شرف عظيم، لكننى لا أدعيه. أن تكون السكرتير العام لحزب شيوعى فى مصر، فأنت تقدم على مسئولية كبرى محفوفة بالمخاطر. وهى مسئولية لا يحق أن أزعمها لنفسي، وهى لآخر ، يستحق وحده هذا المجد السامى.

قال:

- تقول التحريات أنك شكلت مدرسة للكادر، وقمت بتدريس أعضائها قواعد الأمن والمحافظة على السرية.

قلت:

- لم يحدث.

قال:

- تقول التحريات أنك قمت بمقابلة أحد المرشحين لاختباره حتى يصبح عضوا أو يستبعد تماما من التنظيم.

قلت:

- كيف يتسق تدريبى للكادر قواعد السرية والأمان، وأقوم أنا سكرتير عام الحزب بمقابلة مرشح فى صلاحيته ليصبح عضوا، أو يرفض فيستبعد من التنظيم بعد أن

أكون قد كشفت له نفسى وحطمت أماني. ألا ترى فى هذا تناقضا هائلاً!

فكر مليا .

- فعلا دى مسألة غريبة. كده م تمشيش.

قلت له:

- اللى كتب التحريات دى م يعرفش حاجة عن الشيوعية أو التنظيم الشيوعي.

قال:

- اتفق معك فى هذا الاستنتاج.

قلت:

- وماذا بعد؟

قال

- ماذا تعني، بماذا بعد؟

- قصدى . ماذا بعد هذه التحريات التى لا تقف على ساق واحدة. افتكر أنه يجب الإفراج عنى بعد وضوح هذا التلفيق.

قال:

- ليس الآن. لازم أطلع على التسجيلات الصوتية والفيلمية.

كدت أضرب كفا بكف.

- سيادتك تحقق معى بناء على تحريات متخلفة وقبل أن تتعرف على الأدلة الصوتية والفيلمية، وهى الأكثر يقينية، وإن كان يمكن تلفيقها أيضاً!!

قال:

- دى إجراءات لابد منها.

●●●

جاء يوم المحاكمة . نزلنا من سيارة الترحيل لنسير إلى المحكمة فى ممر كالسرداب. أخذنا ننشد ونهتف، ونحن مقيدين إلى بعضنا البعض، فكان لصوتنا دوى زلزل أرجاء المكان.

عندما بلغنا باب قاعة المحكمة، أسرع المحامون إلينا. قال الأستاذ نبيه مراد

المحامى:

- إيه اللى انتو عاملينه ده. هيئة المحكمة زعلت وغضبت وانسحبت من الجلسة.

توقفنا عن الهتاف وإن كنا لم نفهم شيئا. ما الذى جاء بهيئة المحكمة إلى المنصة، ونحن لم نحضر بعد؟ وكيف تبدأ الجلسة ونحن غير موجودين؟

أكمل الأستاذ نبيه مراد:

- أصل زملائكو فى القضية الستات والآنسات وصلو من ساعة وانتو تأخرتم، فالمحكمة بدأت لحين وصولكم.

وتساءلنا كيف يحدث ذلك والرجال عددهم ثمانية عشر والإناث عددهن ستة فقط.

وقال الأستاذ نبيل الجبالى وهو يضحك:

- المسألة مش إناث وذكور. المسألة فى عرف المحكمة متهمين، مجرد متهمين. ستة وصلو وتمنتاشر جايين فى السكة. وعموما مش دى المسألة. المسألة هى تصفية المسألة دى مع هيئة المحكمة.

تساءلنا، وقد حشرنا الحراس فى قفص الإتهام الحديدى:

- إزاى يعني؟

قال الأستاذ نبيه والأستاذ نبيل معا:

- نعتذر لهم.

- بس إحنا م كناش نعرف إنهم ابتدو.

- واحنا هنقول كده برضه.

لم يكن لنا مصلحة فى إغضاب هيئة المحكمة. فاستأذن المحامون ودخلوا غرفة المداولة حيث قدموا الاعتذار نيابة عنا.

عادت هيئة المحكمة إلى المنصة، وساد المحكمة صمت عميق. ثم جاء صوت رئيس الهيئة منفعلا بعض الشيء. قال موجها الحديث إلى قفص الاتهام:

- إننا لم نغضب منكم. لكننا غضبنا خشية عليكم.

ثم بصورة أكثر قوة:

- أنتم من خيرة أبناء هذا البلد. أنتم من صفوة مثقفيه ورموز مستقبله. ونحن هنا

جميعا، قضاء جالس أو قضاء واقف فى خدمة العدالة.

كانت المفاجأة مذهلة. العائلات التى كانت تحتل القاعة يكتنفها الخوف والرهبة، أحست أن المنصة قد أصدرت حكمها، فالهبت أكفها تصفيقا. ثم حل الهدوء من جديد. وقف شاب فى قفص الاتهام، وآخر يحاوره، ورفعا يديهما إلى أعلى وقد قيد الكلبش معصميهما معا.

قال أحدهما:

– نرجو يا سيادة الرئيس ألا نحاكم ونحن فى القيد.

أوقف الرئيس الإجراءات التى كانت قد بدأت بالفعل وأعلن أنه:

– فى هذا المكان لا قيد على اليد أو اللسان.

ثم موجها كلامه إلى رئيس الحرس:

– فكو الحديد.

وبدأ وكيل النيابة يتلو اتهامه. كان كثير الخطأ، ورئيس المحكمة الذى كان من الواضح قد أطلع على القضية بدقة، يصحح له.

ثم ترافع الأستاذ نبيه مراد، ممزقا قانونية الاتهام وخروجه على كل شرعية دستورية. ولجوء أجهزة الأمن إلى التعذيب بهدف انتزاع اعترافات كاذبة. وفى تلك اللحظة كشف بعض ممن فى القفص عن آثار حروق وتمزقات بأجسادهم. وارتفعت فى القاعة أصوات الألم والنحيب.

وكتب رئيس المحكمة ملحوظات ما فى أوراق أمامه.

ثم بدأ الأستاذ نبيل الجبالى مرافعته مركزا بشدة على أن القضية ملفقة والبيانات مغلوطة، فهذا كل ما جاء فى كلمة الإدعاء. وتأكيدا لفداحة الأخطاء أعلن الأستاذ الجبالى أن الإدعاء يقول بإن المتهمين أربعة وعشرون فى حين أنهم خمسة وعشرون من الأبرياء، وأكثر براءة هو المتهم الخامس والعشرون.

وأبدى رئيس الجلسة دهشته، وطلب من النيابة القيام بحصر المتهمين فأكدت أنهم أربعة وعشرون فقط. وتشبث الأستاذ الجبالى بما قال:

وفى تلك الأثناء صعدت السيدة إيمان يوسف فوق أحد مقاعد قفص الاتهام بينما



ابتعد زملاؤها وابتعدت زميلاتها موسعين حولها، لتبدو شامخة وبطنها يمتد أمامها، ويشير الأستاذ الجبالى إلى بطنها ويقول فى صوت عميق مؤثر:

– ها هو المقبوض عليه الخامس والعشرين ذلك الذى دفع به وراء الجدران والقضبان دون إرادة ، ودون جريرة. إنه البرئ كل البراءة والدليل القاطع على بطلان كل ما قيل من أباطيل.

ووضع القاضى رئيس الجلسة يده على فمه يدارى ابتسامته . وتبادل وعضوا اليمين واليسار نظرات ضاحكة.

وضجت قاعة المحكمة بالتصفيق.

قصة

ثرثرة...!

محمود قناية

فى أرض فلسطين المحتلة كان الإرسال التلفزيونى واضحاً فى تلك الليلة من ليالى الصيف ، كانت الصورة معبرة بالألوان، ظهرت فى البداية صورة طاولة الاجتماع وقد صفت عليها زجاجات المياه المعدنية وعصائر الفاكهة وأطباق الحلوي.. وازدان وسطها بباقات الورود.. أما الجالسون حول الطاولة فكانوا ينظرون إلى الكاميرا فى رضا ويبتسمون، وكانت وجوههم تنطق بالارتياح .. وبدت وجناتهم موردة بدماء الصحة والعافية وأربطة أعناقهم فاخرة تتدلى من ياقات قمصانهم زاهية ملونة..!

ودخل الوفد الأجنبى قاعة الاجتماع فنقلت الكاميرا صور الأعضاء يتقدمهم رئيسهم..

هذا الوفد كما علمنا جاء يبحث قضية الإرهاب..وكما أعلنت بعض الصحف أنه ربما يبحث إن تبقى وقت فى الاجتماع قضية الجدار العازل وقضية هدم المنازل وقتل المدنيين والأضرار البليغة للبنية التحتية التى أصابت الضفة وقطاع غزة بفعل الهجمات الشرسة لجنود الاحتلال

الإسرائيلي!

فجأة .. احتلت شاشة التلفاز صورة رئيس لجنة الوفد الزائر ورئيس لجنة المباحثات الفلسطيني وهما يتعانقان ويحييان أعضاء الوفدين ثم يجلسان .. بعد ذلك شاهدنا المجتمعين يبتسمون أثناء التقاط مصوري الصحف ووكالات الأنباء الصور التذكارية..

وتحولت الكاميرا فتصدرت الشاشة صورة المذيع وهو يقول: الآن يبدأ الاجتماع في سرية.. وسوف نوافي مشاهدينا الكرام بعد الجلسة بنتيجة المباحثات.. حتى ذلك الحين ننتقل إلى استوديوهاتنا لنعرض على حضراتكم أحداث الفيلم العربي..!

كان غسان بين الجالسين يشاهد وقائع جلسة الاجتماع بين الوفد الزائري وممثلي الجانب الفلسطيني وكان التلفاز موضوعا على طاولة بين الخيام..

حملق غسان في الوجوه المزدحمة حوله.. كانوا من الرجال والنساء والأطفال والعجائز وكان بينهم جرحى جاءوا مستندين على الشباب ورأى بوضوح في عيونهم اللهفة والشوق والأمل في إصلاح الحال..

قام غسان ومشى وهو يعرج، كانت قدمه اليسرى مربوطة بضماد يغطي جراحا مازالت حية..! واتجه إلى الخيمة التي تضم رفاقه الذين تهدمت بيوتهم..

دخل الخيمة .. وجد جاره مروان نائماً بفعل حقنة المخدر التي أوصى بها الطبيب لكي تساعده على تحمل آلام جراحه البليغة. وهم غسان أن يتناول قرصاً مسكناً لآلام قدمه، لكن مروان استوقفه وهو يفتح عينيه..

وسمعه يهمس في ضعف شديد:

– أنا لم أنم يا غسان.. ماذا قال الوفد الأجنبي وماذا فعل ممثلونا..!؟

قال غسان:

– استرح يا مروان، الجلسة سرية، وسأخبرك حال إعلان نتائج المباحثات..

غمغم مروان وقال: هلا أطفأت عطشي بقليل من الماء يا أخي..!؟

قدم له غسان دورق الماء، وسمعه بعد أن ارتشف منه قطرات يقول متقززا:

– الماء تغير طعمه.. حذار يا غسان أن تشرب منه أنت والرفاق .. لقد فسد..!

سكب غسان ما تبقى من ماء بالدورق على الأرض ونظر إلى مروان بإشفاق وخرج

يبحث عن ماء نظيف..

كان الخلاء أمام غسان موحشاً..

رأى أرضا قاحلة، خفق قلبه حزنا فقد كان يعرف هذه الأرض التى نشأ فيها، يعرف أنها كانت تزدهى بالخضرة قبل أن يجرفها جنود الاحتلال الإسرائيلى ومشى يبحث عن بئر ماء لكن تبين له أن الآبار كلها ردمت مع الأشجار المثمرة التى اقتلعت من جذورها.. وامتلأت عيناه بالدمع وهو يرى مكان بيته خراباً .. كانت رضوى تنتظره وتمسح عنه التعب بعد عودته من العمل.. كانت تعد الطعام وتغسل الثياب، تحنو على أمه العجوز .. وترعى طفلهما الصغير شادي.. كانت تحلم معه بالفرج وتأمل فى مساندة الأخوة أبناء العمومة ممن ينتمون إلى العروبة، وتدعو الله أن تنقل لهم فضائية من الفضائيات العربية بعد بث برامج الغناء والرقص والأفلام، بعد مباريات الكرة وحفلات اختيار ملكات الجمال، بعد مهرجانات أزياء الصيف بأحدث الموضات للحسان وبعد توصيات الخبراء فى الاهتمام بالبشرة للوصول بالجميلات إلى المستويات المثالية.. وبعد.. وبعد أن يستمع الجميع.. كانت رضوى تدعو الله أن تنقل الفضائيات أخبارهم لإخوانهم العرب وللناس فى الدنيا وتحكى لهم كيف يعيشون تحت قبضة الاحتلال.. محرومين من الحد الأدنى للحياة الإنسانية..!

كيف اقتلعت أشجارهم وأحرقت حقولهم وجرفت أراضيهم، كيف أنهم لا يجدون طعامهم بعد أن أغلقت المتاجر.. كيف حرم أولادهم من التعليم بعد منع التجوال بأوامر عسكرية إسرائيلية..

كيف لا يجدون الماء بعد ردم الآبار وتفجير الأنابيب.

كان غسان يتنفس بصعوبة وهو يمشى وفى عينيه صورة رضوى زوجته وهى تدعو الله وتنتظر وتأمل وتأمل.. وصورتها الأخيرة وهى تحذره من مغادرة البيت للبحث عن الطعام لهم لكنه غامر وخرج متخفياً غير مبال بخطر التجوال.. وأخذ يبحث عن أى شيء يسد به رمق طفله وأمه العجوز حتى حصل على لقيمات خبز عند بعض الأصدقاء.. وحين عاد جريحاً مصابا بطلق نارى لم يجد البيت ولا رضوى ولا أمه العجوز الضعيفة.. لم يجد أحدا..!

وكانت الطائرات الإسرائيلية تلقى قنابلها على المخيم، يومها ارتمى على الأرض وامتلأ فمه بالتراب نزف دماء كثيرة، نقلوه إلى المستشفي، مكث أياماً وأخرجوه إلى الخيام مع الذين هدمت بيوتهم.. كانوا أجساداً جريحة ، بطونا جائعة، الظمأ يعذبهم ونار الحمى مشبوبة فى أبدانهم!

وتنبه فجأة وتذكر قول مروان بأن الماء قد فسدواقال لنفسه.. إن مروان لابد أن يشرب ولابد أن يتناول الدواء.. ودارت عيناه.. مسحت الفضاء من حوله، لم يجد أحدا يسأله عن بعض ماء نظيف ووجد نفسه يسأل:

– أترى الفيلم العربى الذى شاهده كثيراً قد وصل إلى كلمة النهاية..؟

أسرع غسان فى مشيته متحملا ألم ساقه ليلحق بالمذيع وهو يعلن عن نتيجة المباحثات. واتجه إلى الممر الضيق بين الخيام..

كانوا مازالوا جالسين وأمامهم الصورة بالتلفاز واضحة.. ملونة.. ووقف يستمع إلى المتحدث الرسمى للوفد الزائر الذى بدا راضيا.. وعلى شفتيه ابتسامة وسمعه يتكلم بهدوء بارد ويقول: بحث الوفدان قضية الإرهاب وانتهيا إلى نتيجة مهمة.. وهو أن الإرهاب مرفوض .. مرفوض..! لكن الوفد الزائر يؤكد أيضا .. أن من حق إسرائيل أن تدافع عن نفسها..!

واتفق المجتمعون على أن بقية الموضوعات سوف تبحث فى الاجتماع الذى سيتحدد موعده فى المستقبل بعد أن يقضى على الإرهاب ويتحقق الأمن لإسرائيل..!

تجمدت عينا غسان وهو يحملق ذاهلا فى صورة طاولة الاجتماع وهى تتصدر المشهد التلفزيونى وهى مزدانة بالزهور والورود .. ممتلئة بالحلوي.. مزدحمة بزجاجات المياه المعدنية.وعصائر الفاكهة!

وفيما هو كذلك إذ تناهى إلى سمعه كلام كثير من التلفاز .. ومن الجالسين.. ومن مراسلى الصحافة والإعلام.. وبدا وكأنه لا يفهم شيئاً مما يحدث .. لكنه حين نظر إلى الدورق الذى بيده ..

أدرك أنه مازال فارغاً وليس به قطرة ماء واحدة..

وأن عليه أن يبحث عنها ويحصل عليها بكافة السبل..!!

شعر

شريعة الغرباء

عيد عبد الحليم

الأشجار البعيدة

بنى كوخاً
على أطراف القرية
بنى بيوتاً للمحبة
فى القلب الذى آمن بقدرة الآخرين
على الانتظار

، صنع فخاخاً لاصطياد اليمام
الذى فر من الأشجار البعيدة
بحثاً عن حبوب القمح
فى الأرض الجرداء

قال لابنه - ذات صباح -:
لو فاض النهر
عليك أن تسرع لجمع الأعشاب
حتى لا تدرك القرية
لعنة الموت المفاجئ
أربعون عاماً عاشها
ينتقل من مقهى إلى مقهي
ومن شارع إلى شارع
ظاناً أن الملائكة
من الممكن أن تخرج
من أبخرة السجائر
لِتنظف النسوة الجميلات
من أدران المساءات الحزينة

كان يغسل ملابسه
- كل مساء -
كقديس
وأمرأته تبتسم
على جسده العاري
الملئ بالطعنات
من جراء حروب خاضها
دون أن يدري
على من يطلق الرصاص
هو القناص الماهر
الذى أمات الثعابين
التى حصدت أرواح الدجاج
من أمر البنات
ألا يلبسن السواد
فى موسم الحصاد

فاجأه الموت - بغتة -
وأهل البلدة
فى السوق المجاور
فدفنه العابرون
فى مقابر الغرباء

نعمة الإبصار

صعد العازف
وفى يده الكمان
حرك الوتر
فطارت عصافير
وحطت عصافير
بينما طفل يلهو
بدبدوبه بين الكراسي

لماذا - إذن -
لا يصل مصممو الديكور
إلى درجة ترضى النظر
مما يجعلنا مضطرين - دائماً -
إلى تحريك الأصابع
فى الفراغ المجسم

ظل على مقهى

لهم وحدهم
حق النظر إلى السماء
ولنا أن نحرث الأرض
بالطيبة والمحبة ونكران الذات

علمونا
أن نرى الله
من خلف زجاج سميك
وأدعوا لأنفسهم
حق امتلاك الصعود
إلى الأشجار

- التى تظهر ليلاً -
مؤكدين علينا
أن نحتفظ فى أثوابنا المثقوبة
بما تساقط من ثمر

دائماً
ما نكبح شهوتنا
فى امتلاك الحياة
نربى أولادنا
على الرضا بالقليل
وكيف يخرجون إلى الشوارع
بأفواه
تلهث بالنشيد الوطني
نحن الرجال الطيبون
الذين أشعلوا النيران
فى أشجار الجنة

ثم راحوا
يبحثون عن الظل
فى أول مقهى

أول اللحن

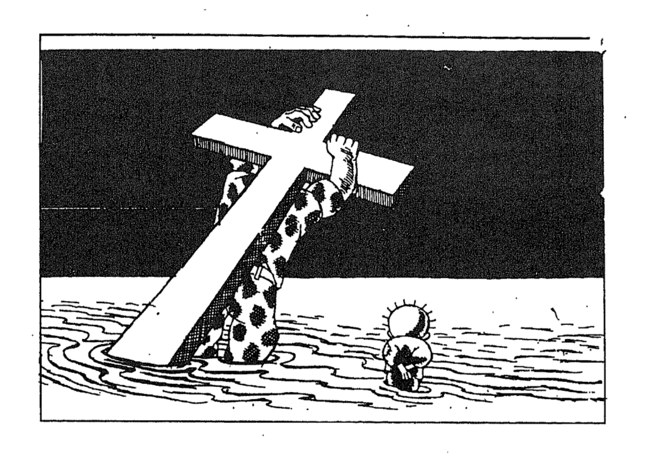
وأنا طفل صغير
كنت أتمني
أن يكون لى بيت
يطل على البحر
أجلس أمامه
مترقباً الصياد العجوز
الذى يغنى لسفينته المتهالكة
، فأسرق منه اللحن
أنسج على منواله أغنية
أهديها لحبيبتي
وأمضى

الآن
لا بيت ورائي
إنما جثة طائر
أستدير ناحيتها
بنظرة حزينة

الباب الخلفي

خرجوا من الباب الخلفى للروح
ليسكنوا
فى ذاكرة القري

أحدهم
أمسك سنارة
وحاول اصطياد الفراغ
لكنه مات على صدر امرأة
عاشرت مائة رجل



ماتوا جميعاً بالسكتة القلبية

..

وأحدهم
أشار إلى السماء
واحتضن شجرة
بين الضلوع
بعد أن فقد ذراعيه
فى مشاجرة

على باب المترو
وآخرهم
حاول اصطياد الفراشات
لكنه مات بداء النسيان
تاركاً لأولاده
صورة له وهو طفل
يحمله أبوه
وفى يده نبوت الخفير

شعر

هشيم النخل

إبراهيم خطاب

التبست الرؤيا عليك
خلع الجنون
والنشاز
أكتشافك ليك
دهشة اللحظة
بدلنا جلدك بالذى منا نسيجه
فلا سواك
مالك
ولا سواك
مملوك برجفة الابتدا
منصوب بخياراتك هوى مرسل
إليك

فـآلبس اللهـجـة مـراوغـه ف حـطتك
بالأرض
ذات الرجع
حجج
الواهنين
حين خطت القدم الكليله بجملك
مـسـراها مـهـبط دفـتين للقـاع ورق
توراتي
ينصبها جلال وصاياه
اتحزمت سؤالاتنا بالواشى العلي
فآنتزعت النخل الخطوط
جماره م الأعين

هتف اللى ما كانت سريرته حنجره
سماع
بالنهر
بالمطر الرعيد
جبل انكساراتكم عليكم
خزيكم
نبوءة الامتثال
مركب حججكم للفدا....
لا عاصم اليوم من هطيل المنفي
تحتشد فيك استكاناتك ملا -
مراوغ
وكأنها
حركه
تستسلم النيات
حروفك
جسيدك
بشاراتك السرية
ورق الخطي
ف توبه دهس
كنت المستكين ف رجوعك
مسك بصيص الصولجان
عمدا
ونظرت نفسك
فالتبست

ف غيرك
فتخذ خيالك ف الجبال
إن شئت
سكني
ربما فتقت نطاقينها
نهارات العبيد
استحلفت فضاواتك
اللاشي
شجر هيولي
يمسد الرحمه
رغيف
ويوزع
على
حضاره
فيا العشيرة اهجرينى من نسابيكم
ما كان على طينى حرج
حين فر سابيكم
غزلان هواكم عنت
لما انتشت
بإيدكم
عين الحقيقة
غفت
لصفار
سنابلكم

وحيد

وأفضل ف بعدك وحيد..
مراكبى..
وتايهه منى الشطوط
مدينة حدودها الدموع..
وليلها تابوت...
مدينة .. بعيدة
شتاها .. خريفها
ربيعها .. صيفها
غريقة ف دموع..

..

وأفضل ف بعدك.. مدينة كسولة
مناها تنفض ركام التراب
تفتح عينيها.. تمطع إيديها
تطوح تعبها..
مناها تعيط .. تخفف دموعها
تحس ابتسامها
مناها ف أيدين
تطبطب عليها
تريح جراحها
الحزينة الأليمة..
وأفضل ف بعدك سراب
وسرب مهاجر بعيد
ولاعرفش أرضه
طاير...
يلفْ المدى طوله وعرضه
(تعب) لكنه لسه
فى تيه السحاب
وعامية عنيه شوية ضباب
مره تهده رياحه الحزينة
ومرة يهده الأسى والعذاب
يحاول يغني
لكنه جريح

شعر / عصام عبد القادر

انحناء

مطر خفيف يتساقط بالخارج،
وهواء يناير البارد يلفع الأجساد
ويخترق العظام.. دخلت هرباً من
لسعة البرد... احتوانى المكان...
سقف مقبب عال مزدان بصور
كائنات سماوية مجنحة يتوسطها
رجل جالس على العرش ممسك
بكرة فى يمينه.. زجاج النوافذ
المعشق بالألوان الأزرق والأخضر
والأصفر والأحمر.. شموع مضاءة
أمام صور كبيرة لأناس رحلوا..
رائحة البخور التى تملأ المكان فيما
يتهادى صوت رخيم خاشع ..
يرتدى صاحبه حلة بيضاء موشاة
بخيوط ذهبية لامعة، وتستقر على
رأسه عمامة بيضاء كبيرة رصعت
بفصوص من أحجار كريمة مختلفة
الألوان زينت حوافها بخيوط من
الذهب الأصفر اللامع.. .

«لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى
فى العالم!؟
تأملت ملابسي.. أثاث بيتى.. كتبى
القديمة.. ملابس زوجتى وأطفالى..
انفض الجمع وخرجنا.. استقبلنى
هواء بارد ومطر.. عربة فارهة تنتظر
صاحب الصوت الرخيم.. هوى فوق
مقعد وثير .. وأشار للسائق
بالإنصراف...
انحنيت ..وأفسحت له الطريق.

صفوت فوزى

لا أريد الكتابة أو القراءة

الآن حبيبى لا أريد الكتابة والقراءة.
الآن حبيبى أقول لك قلمى جف من
كلمة بحبك.
لا أريد حبك أبداً.
أحببتك حبا صافي.
والله يعلم ما فى قلبى لك.
رحلت وتركتنى وأنا فى حاجة إليك.


بشرفي لأحلق شواربي
إذا هالأنظمه حررت
شبر من القدس
١
٢

جرحتنى وأنت مدرك بجرحى.

جرح عميق لا يوجد لها داء أو دواء.

الآن حـبـيـبى حـبك فى قلبى مـثل

المرض الذى لا يشفى منه أبداً..

أنت وردة سوداء ولكن...

أننى سـوف أحـارب نفسـى لأجل أن

أترك حبك من قلبى.

لماذا أنت تجـرحنى هل فـعلت شىء

مـعك سـوى أننى أحـبـبـتك لا بل

عشقتك.

أننى لا أعلم بما أصفك أنت.

يا إلهى أشهد أنت على حبى له..

وعلى جـرحـه لي... أشـهـد يا قـمـر

أنت على حبى له.. وعلى ظلمه لى....

أشهد أنت علي حبي لك..

دعاء عبد المنعم توفيق

وتعود تقصف من جديد..

أضراس عرية مدلهمة .. جليدية

امتدت حرائق

أذرعا أخطبوطية

تلتهم المدينة

بأنهارها.. بأشجارها

بدورها ودروبها

بشمسها القانية العينة

وتوقفت

وترجلت منها كاهنة المعبد

وأقبلت بخطوات وئيدة

من حولها تهمى السماء وترعد

تلتحف أجنحة الغربان سودا مقيته

أقبلت

فى عينيها جفر الجحيم

فى عباءتها.. كل أشواك

كل أشراك

كل.. كل.. أوحال الطريق

بين يديها سفر قديم

وتقف فى قلب المعبد

تقصف..

تقرأ وتغمغم..

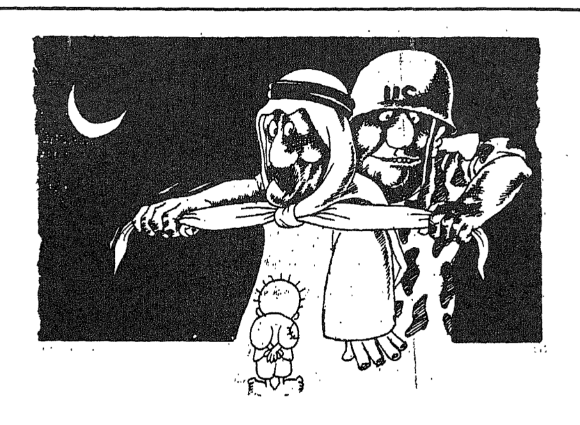
وتعود تقصف من جديد

تمنح الأشقياء والمجرمين البركة

وتتصاعد أبخرة بخور المعبد العطنة

تمتد كى تخنق الصغار

فتتسلل عبر المجرمين



ندس أيدينا بين أيديهم القذرة
علنا نقتبس البركة..!!

ونمتهن تأبين كرامتنا
لنشرى قلوبا صدئة
ونمتهن حفر القبور
وفى المعبد الوثني
حرق أعود البخور
ونمتهن الرقص على بقايانا
والاحتفاء باللهو والعبث
بجراحنا وشكوانا
وتنشر كاهنة المعبد عباءتها
قاصفة
أنتم حراس المعبد المخلصون
عليكمو فى كل لحظة بالصلاة
بالقرابين والبخور
لعلكم تتطهرون...!
لعلكم عن جهلكم وذنوبكم تكفرون

دعاء حسين بدوي
المنصورة الدقهلية

إشارات

فاروق شوشة

أحمل فى قلبى وعقلى الكثير من الحب والتقدير للعزيز فاروق شوشة، وقد بلغ فاروق هذا العام ٢٠٠٦ السبعين من عمره المديد إن شاء الله، وهى مناسبة طيبة لكى يقال عن فاروق شوشة بعض ما يستحقه وهو كثير.

فاروق شوشة هو «زهرة» جيلنا الذى لم يختلف عليه أو معه أحد، ويرجع ذلك إلى إخلاص فاروق فى العمل والإنتاج الأدبى والفكرى والإعلامى مع ترفعه التام عن الخوض أو التوسع فى العلاقات الشخصية وهذا هو السبب نفسه فى أن إنجازات فاروق شوشة كثيرة من ناحية الكم، كما أنها مرتفعة القيمة من ناحية الكيف والنوع. وفاروق شوشة صاحب هذه المواهب جميعا، لأن التعدد يؤدى إلى التشتت والحرمان من التركيز، ولكن فاروق شوشة نجا من هذه المعادلة القاسية، فهو متعدد المواهب. نعم. ولكنه باجتهاده وإخلاصه وحرصه الرائع على استثمار وقته وقدراته استطاع أن ينجح فى كل الميادين التى امتدت إليها مواهبه. فأمسيات فاروق الثقافية فى التلفزيون هى دائرة معارف كاملة وبديعة لعصرنا الثقافى بكل قضاياه ومشاكله وشخصياته، أما برنامجه الشهير الذى بدأه منذ سنة ١٩٦٧ - فيما أعلم - أى منذ حوالى أربعين سنة وهو «لغتنا الجميلة» أظن أن هناك ما يفوقه فى جماله وأصالته وبساطته، فهذا البرنامج هو «القاموس العصرى المحيط» للجماهير العربية فى كل مكان، ليس بما فيه من معلومات موضوعية فقط بل بما فيه من فن أيضا، ويمكننا أن نقول بلا تردد عن «لغتنا الجميلة» إنه برنامج أدبى لغوى موسيقي، وعن طريق هذا البرنامج استطاع فاروق شوشة بصوته القوى الجميل الذى هو قطعة من صوت طه حسين أن يكشف لنا بصورة يومية عن العبقرية الموسيقية للغة العربية.

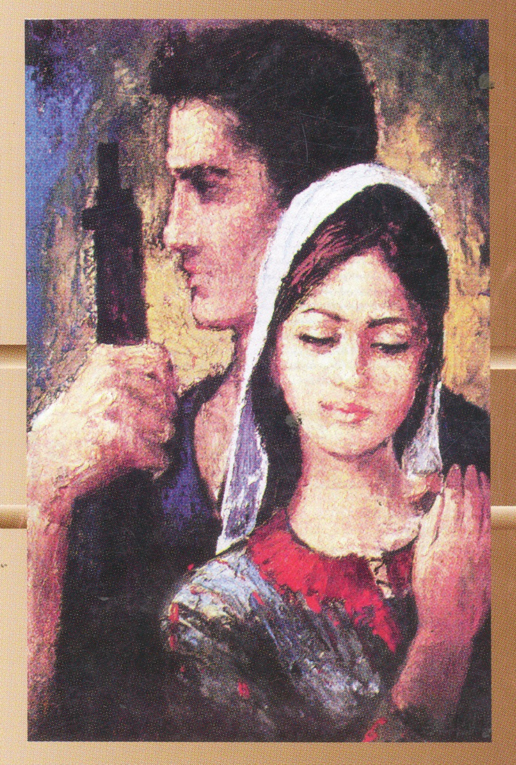
وفاروق شوشة أستاذ من أساتذة الإنصاف فى هذا العصر، والإنصاف لا يصدر إلا عن شخصية قوية دافئة تمشى بين الناس فى شخص فاروق شوشة، وكثيرا ما أقرأ على قلم فاروق أسماء أدبية عزيزة أحاطت بها ظروف قاسية مثل: وحيد النقاش وعبد الجليل حسن وغالب هلسا وخالد الساكت، ولولا وفاء فاروق الأدبى والشخصي، ولولا بصيرته وأمانته لكان مصير كل هذه الأسماء الكريمة هو النسيان الكامل.

وفاروق - بعد ذلك وقبل ذلك كله - شاعر كبير، وهو فى المقدمة من شعراء عصرنا أصحاب الشخصيات القوية المتميزة، وأعماله الشعرية الكاملة التى صدرت فى مجلدين كبيرين منذ عام تقريبا هى ثروة من الشعر الرائع والتجارب الإنسانية والفنية الفريدة.

وأحب أن أشير هنا إلى المنصب الثقافى الذى يشغله الآن فاروق شوشة إلى جانب إنتاجه المنتظم فى الشعر والنقد، وهذا المنصب هو منصب «الأمين العام للمجمع اللغوى» وفى رأيى أن هذا المنصب هو المقابل الثقافى لمنصب الأمين العام للجامعة العربية، والكثيرون لا يلتفتون إلى هذه المقارنة لسبب واحد هو أن الثقافة فى عالمنا العربى ماتزال للأسف الشديد أقل أهمية من السياسة، رغم أن الثقافة عندنا هى التى «تجمع»، أما السياسة فهى التى «تفرق».

وأخيراً أحب أن أقول إن التعريف الحقيقى للمثقف كما تعلمناه من الكتب ومن الأساتذة أيضا هو «الإنسان النبيل» وفاروق شوشة هو المثقف بهذا المعني، أى أنه مثال حى للإنسان النبيل، وهو دليل قوى على أن الذين يعتذرون عن سوء أخلاقهم بأنهم فنانون هم كاذبون ، فالفن الجميل يرتفع بالأخلاق ولا يهبط بها على الإطلاق.

رجاء النقاش



الأمل للطباعة والنشر رقم الإيداع ٧٥١٢ / ٩٢ «الثمن: ٣ جنيهات»